أولاً : البحث

تَداخُلُ اللغَات وأبعَادُهُ الإنسَانيّة

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

السيمياء Sémantique علم يهتم بدراسة معانى الكلمات وتغيراتها متمما بذلك علم الصوتيات phonétique المختص بالنطقيات وهو علم ظهرت له ابعاد جديدة ، وان كان علماء اللغة العرب قد بسطوا القول فى كثير من مجاليه ــ وخاصة حول ظواهر اللغة كسجلى للتعبير عن خلجات الفكر البشرى وكذلك تطور معانى الكلمات فى اطار منهجية حديثة هى منهجية التزامن synchronisme اى تزامن الكلمة وظواهرها بمعنى بروز هذه الظواهر اللغوية فى زمن ما ضمن تأثيرات الالسن واللهجات وهذا العلم هو ما عرف بالسيمياء التزامنى Sémantique synchronique وقد اطلقنا عليه فى بحث سابق (1) اسم «سيمياء المبانى»

واولياه عناية خاصة نظرا لبعده العميق الهادف الى استجلاء كل ما يتصل فى عصر ما بالرابطة التعبيرية القائمة بين الدال والمدلول كما اطلقنا اسم سيمياء المعانى Sémantique diachronique على العلم الذى يستهدف تمحيص التغيرات الطارئة على مدلول الكلمة ومفهومها اى الكشف عن خاصية الظواهر اللسنية من حيث تطورها الزمنى وقد اصبحت لهذه الدراسات منذ الاربعينات مجالات واسعة نظرا لاتساع شبكة الاهتمامات لدى علماء اللسنيات فلم تعد الدراسة تقتصر على الفاظ معزولة اى منفصلة عن مؤثراتها بل اندرج البحث ضمن مجموعة تتفاعل وتتكامل موصولة الرباط بفنون شتى كالنحو والصرف والاشتقاق واسلوب النحت والرص اللغوى انطلاقا من مؤثرات مختلفة واعتبارا لظواهر اجتماعية تكون التعابير فيها مجرد تعريفات للنسب والصلات وحتى الشياه التى تطبع الظواهر وتبرز السمات الدقيقة بين كلمات خضعت لنفس التأثيرات فى لغة ما مع امكان توسيع نطاق التنظير الى لغات مختلفة وهذا هو ما يمكن ان نسميه « السيمياء المقارن Sémantique comparée حيث يحاول خبراء اللسنيات الانطلاق نحو آفاق اوسع يستشفون فى مجاهلها مواقع الصلة بين لهجات ولغات مختلفة من خلال شبكة انسانية شاملة .

ولا يمكن ان نقرر مدى اهمية هذا العلم بشرط ان لا يقصد به مجرد ابراز تأثير لغة على اخرى

---

(1) مجلة اللسان العربى م . 7 ج 1 ص 5

لاشباع نهم عنصرى او شوفينى · فهو يهدف من خلال دراسة تطور الكلمة الى تتبع هذا التطور فى ابعاده بالنسبة لشعب آخر او مجموعة شعوب للكشف عن ظواهر اجتماعية تفاعلت فى منطقة ما من مناطق العالم·

وقد استعرضنا فى احد ابحاثنا (1) اللغوية بعض جوانب هذا الارتباط بين اللغة العربية وبعض اللهجات او اللغات المشتقة من اللسان اللاتينى وجمعنا مادة خاما يمكن التركيز عليها لدراسة العوامل التى جعلت كلمة بعينها تؤثر تاثيرا خاصا فى لغة شعب ما فى عصر ما مستشفين من وراء ذلك مدى ارتباط بعض الشعوب بعضها ببعض واسباب هذا الارتباط ولسنا نقصد بذلك سوى محاولات واسهامات اولية لا يمكن أن ننتظر منها الشيء الكثير غير أنها قد تفتح — اذا ما تبلورت منهجيتها — آفاقا جديدة وثيقة الصلة بنفسانية الشعوب ·

وسنتخذ اليوم اطارا لدراستنا اللغة الانجليزية التى حاولنا تجميع نماذج من مفرداتها خلال بحث موصول منذ سنوات لنصوص علمية بهذه اللغة .

وسيقتصر بحثنا اليوم على استعراض هذه النماذج مع ذكر مقابلاتها العربية والاشارة الى مختلف معانيها ومجالات الربط بينها تاركين التعمق فى المقارنة والتنظير والاستنتاج الى بحث لاحق :

— كلمة abide معناها ثبت وصمد وتابد

ومعنى abiding ثابت دائم من الابد اى الدهر الطويل غير المحدود المسمى « ابد الآبدين » ·

— كلمة beset ومعناها هاجم واكتنف تحتوى حرفين هما b. s (بس) يفيدان السيطرة والاحتواء بمد اليد وبسطها ويوجد الحرفان فى كلمتين عربيتين هما بسق وبسط يقال بسق الرجل على الناس تطاول عليهم وبسط يده على الناس كناية عن التجرؤ على اذايتهم وقد ورد فى الآية : « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك » ·

— كلمة bewilder ومعناها اضل واربك ويمكن مقارنتها بكلمة adirer الفرنسية وكلاهما يمكن تقريبه من كلمة ودر العربية ومعناها فقد وأضل واضاع ·

— كلمة coffin ومعناها التابوت وهى قريبة من كلمة « كفن » وهو ما يلف به الميت ·

— كلمة delve معناها يحفر وينقب وهو كناية عن البحث فى أسفل كما يقال بالعربية دلا الدلو يدلوها دلوا ارسلها فى البئر ودلاها كذلك وادلى الدلو·

— كلمة doom ومعناها الشؤم والموت والهلاك اى كل ما فيه شر وهذا الجذر يشمل كثيرا من الكلمات التى تؤدى هذه المعنى فى اللغتين مثل الضر او الضيم والضنك ، ويمكن مقارنة اللفظ الانجليزى هنا بكلمة ضيم بمعنى الظلم ·

— كلمة fake ومعناها زيف ولفق ويمكن مقارنتها بكلمة افك من الافك وهو الكذب والتزييف ·

ومعناها ايضا الحلقة والفلكة اى الحلقة الدائرة·

— كلمة flog تعنى السياط والجلد وهى شبيهة بلفظة « فلق » ومعناها العود الذى تشد رجلا المجرم اليه فيضرب عليهما « والفلق » اذا اطلقت تنصرف للجلد والسياط وتوجد كلمة انجليزية اخرى هى flick معناها ضرب ضربة سريعة بالسوط ·

— كلمة fetch ومعناها بحث ويمكن تقريبها من « فتش » العربية ·

— مادة flick تستعمل فى وصف حركة الضوء فيقال flicker بمعنى اضطراب وخفقان النور وتفيد ايضا الومضة والبصيص ويقال بالعربى فلق الله الصبح اظهره بكشف الظلام وانفلق الشيء انشق والفلق الصبح والفجر وما انفلق من عمودها فهو كناية عن النور فى اضطرابه على أن مادة « فلك » نفسها بالعربى تعبير الحركة والاضطراب والخفقان فالفلك من كل شيء مستداره وكل مستدير فلكه وموج البحر ما اضطرب من مائه فهاج وماج ·

— كلمة hark تفيد معنى الحركة اما جيئة او ذهابا او مطاردة او اصغاء فكلمة hark-back معناها عودة الى الوراء ·

---

(1) مجلة اللسان العربى م 11 ج 3 ص 228 ·

ـ كلمة gush معناها يسيل ويتدفق ويتفجر وكلمة « جاش » لها نفس المعنى يقال جاشت العين فاضت بالماء وجاش الوادى زخر والنجيع سال وجاشت القدر ارتفع ما فيها وتدفق وجاشت النفس تفجرت حزنا وفزعا ·

ـ كلمة hard معناها صلب قاس عسر والحارد بالعربى الشديد وهو يفيد بالانجليزى الشديد القدرة على الاحتمال وفى العربى المجتمع الخلق الشديد المهيب الذى تحسبه من عزة نفسه غير ذلك ·

ـ كلمة harm معناها الاذى والضرر والحرام كل اذى يحرم اى لا يحل وهذه المادة تفيد المنع او ما يؤدى الى المنع ومنه الحرمان والحرمة ما لا يحل انتهاكه والحريم ما حرم فلم يمس وحريم الرجل ما حماه من الاذى والضرر ومنه تسمية نساء الرجل بالحريم والمحرم ما يحمى من الاذى ومحارم الليل مخاوفه ويقال انه لمحرم عنك اى يحرم اذاه عليك .

ـ كلمة harsh معناها خشن اجش وفى العربى يقال حرش الشيء يحرش حرشا خشن فهو احرش وهى حرشاء والحرش والحرشة الخشونة وحية حرشاء بينة الحرش خشنة الجلد ·

ـ كلمة handsome بمعنى وسيم مليح كبير ضخم وهى قريبة من مهندم بمعنى حسن القد معتدل القامة وسيم الطلعة (وهو من الهندام) ·

ـ كلمة kindle معناها يضرم النار ويوقدها ويوهج النور وتجدر مقارنته بكلمة قنديل بمعنى مصباح·

ـ كلمة lean معناها هزيل ضعيف نحيل اعجف وهو قريب من مفهوم « لين » من الليونة وهى ضد الخشونة ، واللينة الضعف ·

ـ كلمة lore معناها علم ومعرفة ويمكن مقارنتها بكلمة نور العربية وهى كناية عن العلم فى بعض معانيها وقد عرف الامام مالك العلم بانه نور ينقدح فى القلب ويقال بالفرنسية lueur

ـ كلمة mettle ومعناها مثال الشجاعة والعزم حيث يقال to show one's mettle اى اعطى الدليل والقدر والمثال ولا تكون الا فى ابراز

مظاهر الخير كالكرم والفضل والنجدة حيث يقال مثل الرجل مثالة فضل والامثولة المثال الحسن وتماثل العليل قارب البرء وامتثل امره عمل على مثاله واطاعه والماثلة منارة المسرجة والرجل الامثل اى الافضل ويطلق ايضا كما فى الكلمة الانجليزية على الحجة ·

ـ كلمة meeknes تفيد الخضوع والخمول وهى مثل كلمة « مسكنة » على ان مادة « كنس » ايضا تفيد الانزواء والخمول والقبوع يقال كنس الرجل اذا دخل خيمته والكناس بيت فى الشجر يستتر فيه الظبى ·

ـ كلمة neigh بمعنى صهل كناية عن صوت الحصان وقد يبرز الاستعمال احيانا فى بعض اللغات عدم الدقة فى تمثل الاصوات فهى هنا قريبة من «نهق» المخصصة للتعبير عن صوت الحمار ·

ـ كلمة rash معناها رشح وطفح وتفيد مادتها انتشار الماء مثل رش .

ـ كلمة slink ومعناها انسل اى ذهب خفية ·

ـ كلمة shatter معناها كسر وحطم وهى قريبة من شطر ·

ـ كلمة slit ومعناها شق وقطع وقد صلته بالسيف اذا ضربه به وصلت الفرس انقطع عدوه وسيف صلت صقيل قاطع ·

ـ كلمة snare بمعنى احبولة وشرك وهى الصنارة ·

ـ كلمة sway بمعنى تسلط وسطا وسيطر·

ـ كلمة swarth تفيد معنى الدكنة والسمرة والسواد فوجود السين والواو (كما فى السواد) او السين والميم (كما فى swarth وسمرة) يفيد ذلك .

ـ كلمة tread فيها معنى المشى والسوق والطراد مثل طرده وطارده ·

ـ كلمة tie فيها معنى اللى والثنى والطى والعقد ·

ـ كلمـــة wail بمعنى الويل والعويل ·

ـ كلمـــة wane فيها معنى الانهيار والذبول الفناء مثل كلمة faner

ـ كلمـــة wield بمعنى ناول باليد فهى كالكلمة الفـــرنسيـــة aider تحتوى على جذر « اليد » .

تلك نماذج سنحلل بحول الله ابعادها فى بحث لاحق لا تحت شارة تاريخ « السيمياء المقارن » فحسب بل وخاصة فى نطاق تداخل اللغات وابعاده الانسانيـــة ولا أريد أن يفهم من مثل هذه الدراسة نزوع ما نحو ابراز مدى اقتباس هذه اللغة من تلك لان من الصعب ان نوغل فى الاستنتاج حتى فى حالـــة انكشاف بعض مجالى الشبه لو وحدة المنبع او تكامل المنهجيات اللسنية فى مجموعة من المجموعات اللهجوية .

ذلك مجرد اسهام يلقى بعض الضوء على « وحدة اللغات » فى اصالتها الانسانية كحلقـــة فى سلسلـــة دراساتنا فى هذا المجال ·

الأنثى والنجلة والنسناس

الأستاذ عبد الحق فاضل

وما سمى الانسان الا لنسيه
ولا القلب الا انه يتقلب

ذلك ما زعمه الشاعر · وكنت اعتقد منذ الصغر انه لم يكن جادا فى هذا التخريج اللفظى وانه انما قال هذا على سبيل التملح والتندر ، تعبيرا عن تشاؤمه واستخفافه بطبائع بنى جلدته البشر ·

وما كنت احسب أن يمتد بى زمنى حتى اقرا فى اللسان : « **روى عن ابن عباس انه قال : انما سمى الانسان انسانا لانه عهد اليه فنسى** » ! الآن ايضا لا اجدنى اصدق صحة نسبة هذا الكلام المبهم غير المدلل عليه ، الى ابن عباس ·

والمعقول عندى أن يكون اسم (الانسان) متأتيا من (الانس) بالضم ، وهذا من (الانثى) ! . .

على أن ابن منظور يروى كذلك عن الازهرى أن « **اصل الانس** (كالجنس) **والانس** (كالامل) **والانسان: من الايناس وهو الابصار** » · ولكان قارب الحقيقة لولا انه تناولها من معنى الابصار بدلا من معنى الالفة والانجذاب ·

هو يروى كذلك عن الواسطى قوله : « **سمى الانسيون انسيين لانهم يؤنسون اى يرون** (كلاهما بصيغة المجهول) ، **وسمى الجن جنا لانهم يجتنون عن رؤية الناس اى يتوارون** » · وكلامه هذا عن تسمية الجن صحيح ، لكن هذه الصحة زادته يقينا بصواب خطئه فى تسمية الانس الذى يؤيد خطأ الازهرى ·

وما حكاية تأثيله . . الانسان ؟

انه من (الانس) . . وهذا من (الانثى) ، فهمنا · لكن من اين جاءتنا هذه الانثى اللطيفة فاصبحت لنا مصدر الانس والاستئناس والايناس ، بل والانسانية ؟

الانسان . . هذه الكلمة التى تدل عليك انت القارىء ، وعلى انا الكاتب ، لها قصة حقيقية بالسماع·

انها قبل كل شيء منحدرة من (الاس) · وعسى الا يستعجل مستعجل فيظن الامر من السهولة بحيث يلوح للنظر السريع · سيقال ان النون اضيف الى (الاس) بكسر الهمزة ــ فنشأ (الانس) بالكسر ايضا ، وهذه تطورت فصارت (الانسان) ·

فأين الانثى ؟ كلا ، لا يكفى تحويـر اللفظ دون التفات الى المعنى · ان فى المعجـم العربـى عشرات الالوف من الكلمات ينبغى أن تعـرف منهـا الكثير تستحضره فى ذهنك لتتعرف العلاقات القائمـة بينها ، شأن المتقفى (*) يجب أن يستحضر فى خاطره شخصيات الكثيرين من اهل البلد مع صفاتهم وسجاياهم ونزعاتهم وخصائص البيئة التى يضطربون فيهـا ويتعاملـون ويتفاعلون معها ، مع معرفة ما تيسر مـن ماضيهم واحداث حياتهم ·

فاذا نحن تحرينا شخصيات الالفـاظ المتصلـة بموضوعنا ورجعنا القهقرى بحثا عن الماضى ، وجدنا انفسنا قد عدنا الى (الاس) بالفتح والكسر والضم ، واذا بهذا الاس ينجب لنا الكثير من الالفاظ ، احدها (الاسل) زنة العسل : نبات دقيق الاغصان طويلها واحدته اسلة (زنة بصلة) · وقد اتخذوا منه الرماح، ثم اطلقوا اسمه هذا مجازا على الرماح نفسها ، ثم على النبـل .. ثـم على شوك النخـل · وصارت (الاسلة) تعنى ايضا : طرف اللسان ، والذراع ، ثم اطلقت على الطرف المستدق من اى شيء ·

ومن الاسل نجم : العسل والاصل والياصول والوصل (ومنه الفصل) والعنصل (بالضم) ، وما الى ذلك مما لا شأن لنا به هنا · لكننا نكتفى بالقول ان مادة (اس) من الخصب والسخاء بحيث جهزت معجمنا العربى بالكثير من الالفاظ القيمة الخطيرة . ومن كان قد سايرنا فى احاديثنا اللغويـة فى هـذا « اللسان العربى » لا بد انه قد لحظ تكرر عودتنا الى (الاس) فى تأثيل مختلف الكلمات .

لكننا نأخذ من كل ما تقدم ذلك (الاسل) بمعنى شوك النخل الذى شملته التسمية الرمحية لانه طويل يشبه شكله سنان الرمح ، ومنه سنستخرج كـل الالفاظ والمعانى التى ستعرض لنا فى هذا الحديث ·

من الاسل نشأت صيغة السلاء (كالرمـان) وواحدته سلاءة (كرمانة) : شوكة النخل ايضا · ويخيل لنا ان هذه السلاءة هى منشأ فعل سل يسل فلان الشوكة ، اذا نشبت فى جلده فأخرجها .. حتى جاء المعجم ليقول لنا سل المرء شيئا من شيء واستله : انتزعه واخرجه ، وسل سيفا : سحبه من غمده ، وسل الشعرة من العجين : انتزعها برفق ·

وانسل المرء من الزحام (والاصح عندنا : مـن الجمع) انسلالا : انسحب مستخفيا · ويظهر ان هذا (الانسلال) هو منشأ قولهم نسل ينسل (كـذهب يذهب) الشعر والريش نسولا ، وانسـل انسلالا : سقط · والنسال (كالسؤال) : ما سقط من صوف او شعر عند النسل ، ونسل الوالد ولدا : ولده ، ولابد انه يقصد سبب ولادته لان الوالد لا يلد وانما هـى صنعة الوالدة · والتناسل : التوالد .

ونود بهذه المناسبة أن نزجى صيغـة ، بـل صيغتين ، من مادة (ن س ل) بمعنى مستحدث ، هما أولا : (المنسال) نقترح استعماله بمعنـى آلـة التناسل للذكر والانثى كليهما · صحيح ان الفصحى استعملت (الفرج) بالمعنيين لكن هذه الكلمة تخصصت بالمرأة ولم يعد بالامكان استعمالها بهذا المعنى المزدوج دون قرينة مميزة · لكن (المنسال) بصيغـة اسم الآلة لكلا الجنسين يفى بالمرام · وجمعها مناسيل ، مثل مفتاح على مفاتيح ، ومصباح على مصابيح .

الصيغة الثانية التى نقترحها هى : (المنسل) ــ زنة المذهب ــ بمعنى (**الجنس**) الذى يستعمل فى عـدة معـان منهـا مقـابـل (sex) فى مثل قولنا الشؤون الجنسية .. ومنها بمعنى السلالة مقابـل (race) كالجنس الاصفر .. او مقابـل (species) اى النـوع مـن اجنـاس الـحـيـوان او النبات .. او مقابل (kind) فى (mankind) :

(*) زنة المتشفى : الشرطى السرى الـذى يتقفى آثار المجرمين وغيرهم · وكان العرب يطلقون على فن التقفى هذا اسم القيافة ·

الجنس البشرى .. او مقابل kind اطلاقا او sort او genus بمعنى النوع او الصنف من اى شيء .. او مقابل (nationality) اى الجنسية ، ونقترح لها : (الرعوية) .. او مقابل (generic noun) اسم الجنس فى علم التحو ·

فتخفيفا عن كاهل هذه الكلمة المثقلة بأعبائها نقترح (المنسل) .. مثل المذهب الذى كان يعنى اول امره مكان الذهاب اى طريقه ثم صار اسما يعنى العقيدة والنحلة ، وكالمطلب والمأرب والمكسب ، وكلها على صيغة اسم المكان لكنها لم تعد لها صلة بالمكان ولا بالزمان · وعلى هذا نسمى الجنس (منسلا) ، والجنسى (منسليا) ، والشؤون الجنسية (منسليات) .. ويبقى (الجنس) قاصرا فى الاستعمال على (الجنسين) اى (جنس) الرجال و (جنس) النساء ، دونما علاقة بالشؤون التناسلية ، كقولك الجنس اللطيف والجنس الفظيع او الخشن !

اللسان :

· لم اجد فى المعجم ، لكننا كلنا وجدنا فى الكثير من مطالعاتنا قولهم سلوا لسانه : انتزعوه — بشدة طبعا — لا كما يسلون الشعرة برفق من العجين لرقتها اشفاقا عليها من ان تنقطع ، لان المقصود من سل اللسان ما هو الا قطعه · ولا ننس ان الكثير من الاعضاء انما اكتسبت تسمياتها من معنى قطعها او شقها او كسرها (كالذى اوضحناه فى فصل « العنف فى تسمية الاعضاء » — اللسان العربى : العدد 10 — ج 2 — ص 3) ·

وكان سل اللسان فى اول امره يخص الحيوان · ومقصودنا انهم كانوا قد سموا اللسان (نسالا) لانهم كانوا ينسلونه اى يسلونه من فم الذبيحة بعد انضاجها طبخا او شيا ..

على ان اعضاء الانسان المحترم ومنها اللسان لم تسلم من الجائحة · فقد جعلوا يسلون لسانه حيا ، وهو افظع ، عقابا او تعذيبا ، ومثل ذلك انهم كثيرا ما صلموا اذنيه او سملوا عينيه ، ولا بأس علينا ان نلحظ فى طريقنا ، استطرادا ، ان الفاظ الصلم والسمل والنسل مرجعها التأثيلى واحد هو سل يسل سلا ·

والعلاقة بين اللسان والسل سجلها الشاعر العباسى المتحذلق فى كلامه على زهرة البنفسج التى تنبت لها زائدة جانبية كالذؤابة ، ففسر ذلك بقوله :

رغم البنفسج انه كعذاره
حسنا ، فسلوا من قفاه لسانه !

قلنا انهم سموا اللسان (نسالا) اول الامر ، فنحن الآن نطالب القارىء بأن يحاسبنا على ذلك ويطالبنا هو بالدليل ·

اولا راينا انهم قالوا نسل شعر او ريش : بمعنى : سقط · ولقد استعملوا هذا الفعل متعديا ايضا فقالوا نسل شعرا او صوفا : انتفشه واسقطه .. كما استعملوا (النسال) — بالضم — بمعنى ما يسقط من صوف او شعر عند النسل — اى عند انتزاعه ونتفه · فلا عجب اذن انهم استعملوا (النسال) بمعنى اللسان الذى ينسلونه وينتزعونه · وقد بقى من معنى الانتزاع قولهم انصل شيئا من شيء : اخرجه ·

والمسألة هنا ليست مسألة استنتاج وحسب ، فان بعض اللهجات المغربية تسمى اللسان (النسال) فعلا · وقد استغربت حين طرقت اللفظة سمعى اول مرة وحسبتها تحريفا عاميا للفصيح ، كما هو شأن الدارجات احيانا ، لكن التأثيل قادنى الى عكس هذا الظن اى الى الاعتقاد بأن (النسال) هو اثل (اللسان) بالفصحى ، واذا بالفصحى هى المحرفة للكلمة .. العامية !

بعد ان استقرت صيغة (اللسان) وثبتت مبنى ومعنى — صارت تعنى كذلك ، المقالة ، والثناء ، والرسالة .. واللغة ·

وهى بمعنى اللغة تنطق بالشين فى الاكدية (= البابلية القديمة) : لشان ·

ومن معنى اللغة ايضا : لسان ابن منظور ؛ اى معجم « لسان العرب » .. ثم هذا « اللسان العربى » الذى تحت بصرك ·

ثم هم اطلقوا (اللسان) — استعارة — بالاضافة الى ما تقدم — على ما استدق وطال من بعض الاشياء ؛ كلسان النار · حتى النعل اذا استطال صدرها سموه

لسانا · ومن ثم قالوا لسنت (بالتشديد) شيئا : جعلت طرفه كطرف اللسان أو جعلته على شكل اللسان ·

وقالوا ــ استعارة أيضا ــ لسنت (كضربت) فلانا : أخذته بلسانك وذكرته بسوء · ولسنت الجارية : تناولت لسانها ترشفا · ولا نعلم اى أحب اليك ان تلسن الجارية ترشفا أم أن تلسن الناس اغتيابا وتلذذا، لكن الذى نعلمه أن جانب السوء اخصب لغويا فان تلك الجارية ــ احسن الله اليها ــ لم يرد لها ذكر بعد ذلك فى المعجم ، لكن الذى يرد ذكره فيه هو قولهم لسنت العقرب فلانا : لدغته ، اما تشبيها لشكل زباناها باللسان (شكل لسان النعل يشبه شولة العقرب فعلا) .. واما لان لسعتها تشبه تقول بنى الانسان بعضهم على بعض بالشر ·

الملاك :

يا طالما تحيرت فى أثل قولهم الكنى اليه (زنة اغثنى) بمعنى : بلغه رسالتى ، أو كن رسولى اليه ، واذا بكلمة (لسان) وتطور معانيها تحل لنا المشكلة· لقد راينا توا أن (الرسالة) من جملة معانى اللسان· ومن هذا قالوا السن فلان يلسن السانا (كأحسن يحسن احسانا) بمعنى : أبلغ رسالة · وقالوا السن (فعل أمر) لى فلانا والسنى (أمر بتشديد النون) فلانا كذا وكذا : أبلغه لى كذا وكذا ·

ثم هم نطقوها بالكاف بعد ذلك من نفس الوزن على الاغلب : (الكنى) بتشديد النون اولا ، ثم تحورت الكلمة تخفيفا فصارت (الكنى) بسكون الكاف وكسر اللام والنون المخفف وهى الباقية فى المعجم وفى شعر العرب · ومنها صاغوا فعل الك يالك (كضرب يضرب) بمعنى ترسل ، اى صار رسولا ·

هنا يأتى الملك (زنة البلد) الذى تدرجه المعاجم فى مادة (الك) باعتباره قد اشتق منها بصورة (مالك) ــ زنة مسلك ــ اولا ، ثم حذفت همزته ، والهمزة كما هو معلوم كثيرة التعرض للحذف او التخفيف · وصار (الملك) يعنى (رسول) السماء · لكن همزته ظلت تظهر لتثبت وجودها فى صيغة (ملاك) وهى مقلوبة (مالك) المندثرة ، فذلك حيث يقول شاعر :

فلست لانسى ولكن لملاك
تنزل من جو السماء يصوب

فواضح من صيغة (الملاك) انهم خففوا همزتها أولا فظهرت صيغة (الملاك) ــ كالمنام ــ مرادفة لصيغة (الملك) زنة الفلك ·

وقالوا الكه (كضربه) يالكه ألكا : أبلغه الالوك (كالالوف) اى الرسالة · هنا تعرض لنا ملابسة لغوية ممتعة تورط فيها قدامى اللغويين ، هى اننا نجد هذه (الالوك) فى قولهم « هذا **الوك** صدق ، **وعلوك** صدق ، **وعلوج** صدق : لما يؤكل » ! كذلك قالوا « **الك** الفرس لجامه : علكه » ·

فالالوك بالمعنيين ــ الرسالى والطعامى ــ ليست بالكلمة الواحدة ، وانما هما كلمتان من اثلين مختلفين ولو انهما اتفقتا نطقا فى لفظة واحدة · فالالوك الرسالة اثلها كما راينا هو اللسن .. فى حين ان الالوك الطعام اثلها الاكل والعلك فالعلس فالعسل · فمن الاكل : « الوك صدق : ما يؤكل » ، ومن العلك : « الك الفرس لجامه : علكه » · لكن مآل الاثلين كليهما على اختلاف معنييهما هو هذا الأثل المشترك البعيد الخطير (الاسل) ·

« الليث : الالوك : الرسالة وهى المالكة ، على مفعلة ، سميت الوكا لانه (كذا) يؤلك فى الفم ، مشتق من قول العرب : الفرس يالك اللجم (جمع) ، **والمعروف يلوك او يعلك اى يمضغ · ابن سيده : الك الفرس اللجام فى فمه يالكه : علكه ، والالوك والمالك** (كالمأمن) **والمالكة** (كالمعركة) **والمالكة** (كالمكرمة) : **الرسالة لانها تؤلك فى الفم** » ! ــ اللسان

فالذى أوقع الليث وابن سيده ــ على جلالة قدرهما ــ فى الخطأ عند تلمسهما الحقيقة ، هو تطور كلمتين مختلفتين فى اتجاه واحد حتى انتهى بهما الامر الى الاندماج فى لفظ واحد ، كالذى حدث فى تطور كلمات أخرى ·

المليك والملك :

انتقل المعنى من الملك (كالفلك) ــ الكائن السماوى ــ الى الرب الاله أولا ، مثل كلمة (الرب) نفسها تعنى الاله والمالك والسيد والمصلح · ثم انتقل

معنى الملك الى البشر · يقول المعجم ان « **المالك والمليك والملك** (بكسر اللام او سكونه) : **صاحب الملك والرئيس الحاكم للامة** » · اى ان المعنى صار الى التملك والسلطة ، لكن معنى الالوهية لم يذهب عن الكلمة فان كلا من المالك والملك من الاسماء الحسنى ؛ وقد عبدتا (بالتشديد ، وعلى المجهولية) فى التسمية فقيل عبد الملك وعبد المالك · والآية « مالك يوم الدين » يقراها نافع احد السبعة وبقراءته يأخذ اهل المغرب « ملك يوم الدين » — ما يدل على ان الكلمتين كانتا سواءا عند العرب ·

وقد صيغ الفعل ملكت شيئا تملكه ملكا (كضربته ضربا ؛ وللمصدر صور اخرى) : كنت حائزا له ومقتنيا (حسب تعريفنا ، اختصارا لتعريف المعجم) وعلى المجاز قالوا ملك فلان نفسه وتمالكها : ضبطها وسيطر عليها عند غضب او شهوة · والملكة (بالتحريك) : التملك · وصارت عند المحدثين تعنى الموهبة والحذق الفطرى فى علم او فن ·

ومن معنى الحيازة والسلطان صار الملكوت : الملك العظيم ، ثم العز والسلطان .. وصار فى التعبير الدينى يعنى ملك الله ، اى السماوات والارض ·

اللكنة :

ومن مشتقات اللسان : (اللسن) — كالرسن : الفصاحة ؛ وسلاطة اللسان · والملسون : الكذاب · اما لكن يلكن لكنا (كفرح فرحا) ولكنة (كلقمة) ولكونة (كعقوبة) ولكنوفة (كأعجوبة) فتعنى : عى وثقل لسانه ؛ او كان لا يقيم العربية لعجمة فى لسانه ·

اللحن :

ومن (لكن) هذه ظهر (اللحن) — كاللبن : اللغة (اى كاللسان) او الفطنة (اى كاللقن ؛ الذى سيأتى حديثه بعد) ·

وقالوا لحن (كضرب) فلان : تكلم بلغته ؛ وهذا المعنى قريب من (لسن) من جهة ؛ وشبيه بـ (لكن) من جهة اخرى لان المقصود ان المتكلم غير عربى · واللكنة (بالضم) : التكلم بالعربية بلهجة فيها عجمة ؛ واللحن : تكلم المرء بلغته (الاعجمية) ·

« **قالوا للحن** (كاللعن) **ستة معان : الخطا فى الاعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى** » — اللسان ·

نضيف الى معنى الغناء هنا قولهم « لحن تلحينا فى قراءته : طرب تطريبا وترنم » · والظاهر انه كان يطلق كذلك على كل صوت منغوم كما هى الحال عندنا اليوم ، فمن هنا فيما نتوهم نشأ (النحل) لان لطيرانه طنينا ونغما ، واحدته : النحلة ·

لقن :

ومن (لكن) كذلك نشأ اللقن والتلقين بمعنى الفهم والتفهيم · واللقن واللقنة واللقانة واللقانية (كالعلانية) : سرعة الفهم والفطانة (وهذه كما راينا من معانى اللحن الستة) ·

والمتأخرون يستعملون (التلقين) بمعنى التعليم وتحفيظ الكلام او طلب ترديده بعد الملقن · من ذلك (الملقن) فى المسرح يساعف الممثلين بالفاظ ادوارهم كلما نسى احدهم شيئا منها · ومن ذلك ايضا تلقينك محتضرا الشهادتين وغيرهما من الادعية ، اى تفوهك بهما ليرددهما المحتضر بعدك · لكن لا اثر لهذا المعنى فى المعجم العربى · فهل وجده المعجميون واعتبروه مولدا فلم يأخذوا به ، ام انه ظهر متاخرا بعد عهد التعجيم (= جمع المعاجم) ؟ كذلك يقول معاصرونا لقنته درسا : انتقمت منه او عاقبته وجعلته عبرة لنفسه ·

اللعن :

اما هذا فيظهر انه انما نجم من معنى سلاطة اللسان فى (اللسن) آنفا · قالوا « **فلان يتلاعن علينا : اذا كان يتماجن ولا يرتدع عن سوء ويفعل ما يستحق به اللعن** » ·

ثم صار اللعن يعنى : السب ، والطرد من الخير .. ثم صار التلعين : التعذيب ·

السن :

جمعوا اللسان على : السنة ، والسن (بضم السين) ، ولسن (بضمتين) ، ولسانات ·

ثم قدر الله ان يسقط اللام عن احدى هذه الصيغ او احدى صيغ اخرى منقرضة — حين استثقلوا ان يقولوا : الالسنة والالسن واللسن . . فقالوا السن (زنة الجن) . ثم كان ان تخصصت هذه الصيغة بهذا العظم الصغير النابت فى الفك . وجمع السن : اسنان واسنة (كجمع السنان !) واسن (كجمع الكف على اكف) .

والتسمية جاءت فيما نظن عن طريق العقرب فالافعى . ذلك بانهم قالوا : لسنته العقرب الآنفة الذكر ، بمعنى لدغته كما راينا ، ثم قالوا : لسبته الحية ، بنفس المعنى . وابدال النون باءا له فى العربية اشباه وان كانت قليلة ، منها تحنب عليه : تحنن ؛ وبث خيرا : نثه .

والحية لا تلدغ بذنبها كالعقرب بل بنابها اى بسنها ، فمن اجل هذا انتقل معنى اللدغة الى العضة، قالوا سن فلانا يسنه سنا (زنه شده يشده شدا) بمعنى : عضه بأسنانه اولا ، ثم بمعنى طعنه بالسنان، استعارة ، اى ان سنان الرمح هذا هو الذى نجم من سن بنى آدم والعياذ بالله ، لا العكس . وان كنا بهذا التخريج قد برانا اخانا الحيوان ضمنا ، فلاننا نتوهم ان التسمية جاءت من اول عضة تتلقاها الام الرؤوم من رضيعها الناكر للجميل حين يستمتع بتجربة سنيه الجديدتين فى عض حلمة الثدى الذى سقاه مادة الحياة.

ومن رهافة السن ومضائها — ولعلها سن الرضيع ايضا — جاء قولهم سن سكينا : شحذه واحده ، اى جعله حادا ماضيا كالسن ! ثم قيل سن رمحا وسننه واسنه (وكلها بالتشديد) : ركب فيه سنانا . . واصل المعنى : ركب فيه سنا ! .

وكانوا وما زالوا يقدرون اعمار بعض حيواناتهم بفحص اسنانها . ومن هنا صارت السن — وهى مؤنثة — تعنى العمر نفسه . يقال : كم سنك . . اى عمرك ؟ وقد اجاب احد المماحكين : اثنتان وثلاثون ! يعنى عدد اسنانه . فقال السائل : ما سنك ؟ . . فأجيب : عظم ! . . فى حكاية مشهورة .

ثم ان العرب قالت اسن رجل : شاخ ، بعد ان قالوا اسن صبى : نبتت اسنانه .

ودليلا على كثرة استعمال السن فى المجاز والاستعارة نذكر انها اطلقت كذلك على شعبة المنجل والواحدة من شعب المشط ونتوءات المنشار ونحوها ، وعلى الحبة من راس الثوم ، وعلى مكان البرى من القلم (اى اسلته) ، وعلى حرف فقار الظهر .

والسنة (كالحبة) : الفهدة ، ربما من معنى النهش بأسنانها ، ثم اطلقت على الدبة من باب الخلط التطورى ، بعد ذلك فيما يظهر . وما اكثر ما استعملوا اسما واحدا لاكثر من حيوان ، بل لعدة حيوانات فى بعض الاحايين .

اما السنة (كالسكة) فهى : الفأس لها حدان ، ربما من معنى ظهور الاسنان شفعا شفعا فى البداية ، فاستعاروا الواحدة منهما لتدل على حدى الفأس المزدوجة كليهما .

السنة :

ومن السن او احدى صيغها نشأت صيغة السنة (كالشفة) . ومن تقدير عمر الدواب بالسنوات عند فحص اسنانها اكتسبت (السنة) معنى الحول اى دورة العام .

وتنطق السنة بالبابلية (شتى) ومنها (ريش شتى — resh shatti) : راس السنة . ولا بد ان اثلها قد كان (شنتى) ثم ادغموا النون فى التاء .

وجمعوا السنة على : سنوات وسنهات وسنون (بالكسر) وسنون (بالضم) . ونظن هذا اثل السنونو (بالضم) وهو طائر موسمى يظهر (سنويا) فى صيف المناطق المعتدلة .

وتشعبت الصيغ فقالوا اسنى القوم فى موضع ، يسنون اسناءا : لبثوا فيه سنة .

لكنهم اذا ذكروا السنة مطلقة قصدوا بها الازمة او السنة المجدبة ، فى مثل قولهم : اصابتهم السنة . وهو دليل على انه منها نشأ الاسنات (كالاحسان) ، فكما قالوا اسنوا يسنون (كأمسوا يمسون) قالوا اسنتوا يسنتون اسناتا فهم مسنتون : اصابهم سنه (بالهاء ، لا بالتاء) وقحط واجدبوا . وهذا منشأ قولهم المسنتة (كالمحسنة) والسنتة (كالشرسة) :

الارض لم يصبها مطر ، ثم قولهم رجل سنت (كشرس): قليل الخير .

« واصل السنة سنهة بوزن جبهة فحذفت لامها ونقلت حركتها الى النون فبقيت سنة لانها من سنهت النخلة وتسنهت اذا اتى عليها السنون . قال ابن الاثير : وقيل اصلها سنوة (كصحوة) بالواو فحذفت كما حذفت الهاء لقولهم تسنيت عنده اذا اقمت عنده سنة » ــ اللسان ، مادة (س ن ه) .

يرى قارئنا الكريم من هذا وامثاله ان الاقدمين كثيرا ما تناولوا المعانى والالفاظ وحاولوا معرفة نشوء بعضها من بعض لكنهم فى حالات غير قليلة عكسوا الامر فخالوا الفرع اصلا والاصل فرعا ، كما يفعلون هنا .

ثم قالوا سانى فلانا مساناة وسناءا (كسلاحا) : استاجره او عامله لسنة .

ونطقوا السنوات (سنهات) كما تقدم ، كما نطقوا المساناة (مسانهة) بمعناها الآنف . والفعل سنه يسنه سنها (كفتح فتحا) : مرت عليه سنون . وسنه طعام او شراب : تغير (وهذا من باب المبالغة كأنما مرت عليه سنهات) .

وسانهت رجلا : عاملته بالسنة . والنخلة سانهت : حملت سنة بعد سنة .

لكن مادة (س ن ه) ايضا لم تخل من معنى الجدب فقالوا السنهاء من النخل : التى اصابتها السنة المجدبة ، او التى تحمل سنة ولا تحمل اخرى .

النسيان :

من السنة والمساناة ظهر النساء (كالسماء) : طول العمر . . وواضح ان المقصود كان كثرة (السنين).

اما النسء (كالنشء) فمعناه : التأخير يكون فى العمر او فى الدين ، والنساة (كالنشأة) والنسيئة (كالبريئة) : التأخير والتأجيل . ومن ذلك جاء قولهم نسئت المراة : تاخر حيضها .

ومن معنى التاخير والتاجيل قالوا انساته الدين او البيع : اخرته ، اى جعلته مؤجلا . واسم ذلك الدين النسيئة . وهى تنطق فى الفارسية (نسيه ــ زنة نسبة ــ بمعنى البيع بالدين .

وناتى الى (النسو) ــ كالنحو ــ فمن قولهم (نسا ينسأ نسأ) بالهمزة ، ظهر (نسا ينسو نسوا) بتخفيفها : ترك عمله . وانساه ينسوه شيئا : امره بتركه .

اما جموع المراة : النسوة والنساء والنسوان : فهى لغويا اى تأثيليا من باب (الناس والانسان) ، ولو ان المعجميين يدرجونها بدون مناسبة فى باب (النسو) هنا . خدعهم هذا الواو فى اللفظ دون ان يعيروا المعنى التفاتا .

ومن قولهم آنفا (انساه شيئا) : امره بتركه ، او من صيغة مماثلة صار قولهم (انساه شيئا) يعنى : جعله ينساه ــ والفرق ان هذه الاخيرة مدرجة فى مادة (ن س ى) ، بينما الاولى فى مادة (ن س و) . وبتعبير آخر انه لما كانت (نسا ينسو نسوا) تعنى : ترك عمله ، صارت نسى (كفرح) نسيا ونسيانا ونساية (كبناية) ونسوة (كندوة) ونساوة (كعداوة وعلاوة): ضد تذكره . . (واذا طلبت فى المعجم تذكرت شيئا ؛ قال لك : ضد نسيته) : لهذا نقول للقارىء فى تعريف النسيان ولو انه لا يحتاج الى تعريفه انه : غياب الشىء عن البال .

ونذكر على سبيل الترفيه عن قارئنا العزيز جدا ، والتخفيف من جدية الموضوع ، قول احد الظرفاء العراقيين ، فى النسيان ــ ولا اعرف اسمه ــ لانى (نسيته) :

قد بلغ النسيان بى أنه
لم يبق لى بالا ولا حسا
فصرت اما عرضت حاجة
تهمنى أودعتها الطرسا
وصرت انسى الطرس فى راحتى
وصرت أنسى اننى أنسى !

اثنان :

لا بد ان بعض العرب نطقوا السن بالثاء ، وكانوا عندئذ ــ فى عهد لغوى سحيق ــ يجمعون بالالف

والنون (*) ، فجاء جمع السن (ثنان) بدل (سنان) و (الثنة) بدل (السنة) ــ بالكسر ، وبعد شيء من التحوير التطورى نجمت (الثنية) زنة الهدية : واحدة الثنايا ، وهى الاسنان الاربع فى مقدم الفم ، (ثنتان) من أعلى و (ثنتان) من اسفل ·

هذا يفسر لنا كيف صارت (الثنتان) تعنى العدد الذى بين الواحد والثلاثة ، اى ضعف الواحد ــ لان هذه (الثنايا) الاربع تنبت (اثنتين اثنتين) · ثم انبثقت صيغة المذكر (اثنان) التى تشبه جمع السن على اسنان ·

وسرعان ما صاغوا بعد ذلك الفعل : ثنى يثنى (كجنى يجنى) شيئا : « طواه أو عطفه » ــ اى طوى الثوب مثلا وعطف الغصن وثناه (بالتشديد) تثنية : جعله اثنين · وصارت : (اثناء) الشيء و (ثناياه : تضاعيفه ومطاويه ، و (أثناء) الحية : مطاويها اذا (تثنت) ·

والثنيان (كالبنيان) : « الرجل بعد السيد ، اى الثانى فى الرياسة » ، أو بتعبير آخر : الذى يلى الرئيس ويحل محله اذا غاب · ونحن اليوم بحاجة الى احياء هذه الكلمة فى عربيتنا المعاصرة ·

ان فعل (طوى طيا) مرادف لفعل (ثنى ثنيا) وقد جعل العرب لكليهما علاقة بالعدد (اثنين) لكن بطريقة متعاكسة · ذلك أن (الثنى) نشأ من (الاثنين) ، فى حين أن (الطى) منه نشأ (الطوى) ــ زنة الهدى ــ بمعنى التثنية ايضا · اللسان : « **واذا كان طوى وطوى** (بضم الاول أو كسره ثم فتحة منونة) **هو الشيء المطوى مرتين فهو صيغة بمنزلة ثنى وثنى** (بالضم أو الكسر كذلك) ،، **كما قال الشاعر :**

افى جنب بكر قطعتنى ملامة ؟
لعمرى لقد كانت ملامتها ثنى

وقال عدى بن زيد :

اعاذل ان اللوم فى غير كنهه
على طوى من غيك المتردد »

اه اللسان ·

وعلى هذا كان من جملة تفسيراتهم الآية « انك بالواد المقدس طوى » ، قولهم ان المقصود هو الوادى المقدس مرتين ·

نجد (طوى) بنصها (twa) فى السكسونية بمعنى الاثنين ايضا · وقريب منها النطق الايطالى (دوه ــ due) وقد انملست الكلمة شيئا فى (دو ــ du) بالفارسية والسنسكريتية ، ولا نعلم كيف كانت تنطق فيهما أول أمرها · لكننا نجد من آثار الانملاس صيغة (deux) الفرنسية التى يثبتون فيها الحرف الاخير كتابة ويحذفونه نطقا ، ويدمجون الحرفين الثانى والثالث فى حركة مديدة واحدة ·

الانثى :

تعرض لنا فى طريقتنا (تقليعة) لغوية غريبة .. هى أن صيغة (الانثيين) ــ تثنية الانثى ــ تعنى شيئا خاصا بالذكر اى غدتى الذكورة ·

الانثى ، يقول المعجم انها خلاف الذكر ، واذا رجعنا الى الذكر قال لنا انه خلاف الانثى ! فاذا لم نكن نعرف أحد النقيضين سلفا فى هذا وامثاله كالنور والظلام ، والليل والنهار ، والقريب والبعيد ، والقوى والضعيف .. فقد ضعنا ·

مهما يكن فما من أحد يجهل أن الانثى هى الجنس الذى يحبل ويلد من الحيوان ويزهر فيثمر من النبات ، وان الذكر هو الجنس الذى يلقح ويترك المقادير تجرى فى اعنتها ·

الانثى من أين نشأت ؟ وما علاقتها الايجابية أو السلبية بالانثيين ؟

يقول المعجم ان الانثيين : مثنى الانثى · الخصيتان، الاذنان · وانثيا الفرس : ربلتا فخذيها ، والانثيان من احياء العرب : بجيلة (كقبيلة) وتضاعة ·

---

* يراجع كلامنا عن « التثنية والجمع » فى كتابنا « مغامرات لغوية » و « اللسان العربى » ــ العدد 5 غشت 1967 ·

وحسبنا هذا مادة للتمحيص والاستنتاج · فتأمل هذه المعانى عزيزنا القارىء وتعاون معنا فى استخلاص الحقائق الجلية من هذا الخليط الغامض ، ثم قل لنا ما علاقة القبيلتين العربيتين الكبيرتين بجيلة وقضاعة بالاذنين وربلتى الفخذين من الفرس ؟

من الواضح جدا من تدبر هـذه المعانـى أن (الانثيين) مجرد تحريف من (الاثنين) لذلك اطلقوها على اشفاع كثيرة من الاشياء — قياسا على الثنيتين اى السنين الاماميتين — بل ربما اطلقوا (الانثيين) على كل شفع اى على كل قرنيين متلازمين من الاشياء، وعلى كل الاعضاء المزدوجة ، ثم زالت تلك العـادة اللغوية التى كانت قياسية فيما نظن وتخلفت من آثارها هذه الاشتقاع التى يذكرها المعجم ، ومنها قبيلتان كان لهما شأنهما بعضهما مع بعض من خصام ووئام .. فيـرد ذكرهمـا معا كمـا كـان يقال بكـر وتغلب ، وكما لا يزال يقال اليوم فى نجد وانحاء بادية الشام : شمـر وعنـزة ·

« وقال ابن سيدة : وقول الفرزدق :

وكنا اذا الجبـار صعـر خـده
ضربناه تحت الانثيين على الكـرد *

قال يعنى الاذنين ، لان الاذن مؤنثة » اللسان ·

وما نرانا نوافق ابن سيده على تأويله هذا لان مجرد كون الاذن الواحدة مؤنثة لا يبرر تسمية الاذنين انثيين ، فالعين ايضا مؤنثة ومثلهـا اليـد والساق والخاصرة .. الخ · وانما الصواب ما قلناه ، وهـو ان الاذنين سميتا انثيين لانهما اثنتان ، شأنهما شأن ربلتى الفخذين وتينك القبيلتين ·

فمن هنا اطلقوا (الانثيين) على الغدتين الخاصتين بالذكورة ، كذلك ·

وبشىء من التأمل يبدو من الواضح — ربما جدا ايضا — ان لفظة الانثيين اطلقت على القرينين من بنى الانسان : المراة والرجل ، مثلما نقول الآن : الزوجين ·

لكن لماذا اختصت كلمة (الانثى) بالمراة دون الرجل ما دام الاثنان — الزوجان — رجلا وامراة ؟ واضح للمرة الثالثة ان السبب قد كان نحويا ، قبـل ظهور علم النحو بقرون نجهل تعدادها · ذلك انهم عند ما افردوا (الانثيين) جاء المفرد بيدهم (انثى) وهى صيغة تانيث كالحبلى ، فاختصت من اجل ذلك بالمراة · وجمعوا الانثى على : اناث وانث (كسفن) وانائى (كحبالى) ·

واستخرجت من (الانثى) اشتقاقات تدل كلهـا على الرقة واللين · قالوا هذه امراة انثى : اذا مدحت بانها كاملة من النساء · والمؤنث : الرجل المشبه بالمراة فى لينه وتكسر اعضائه · وانثه تانيثا : جعله مؤنثا او عده انثى او خنثه (بالتشديد) .. وبلد انيث : لين سهل ، ومن ثم ظهر قولهم مكـان انيث : اذا اسرع نباته وكثر · ويروى لنا اللسان تخريجا طريفا حيث يقول : **« وزعم ابن الاعرابى ان المراة انمـا سميت انثى من البلد الانيث ، قال : لان المراة اللين من الرجل، وسميت انثى للينها »** · ومن قوله « زعم » يتضح انه لا يتفق معه · لا تلوم ابن الاعرابى فى تخريجه هذا فى ذلك الزمان بدلا من ان يقول العكس اى ان اشتقاقات الانثى هى التى اكتسبت معنى اللين من المراة · كان القـوم يتخبطـون فى كل اتجاه بحثا عن الحقيقة · فمرحى لهم فيما اصابوا فيه ، ولا لوم عليهم ان اخطأوا لكن هذا لا يمنع ان نميز منهم بين الاذكياء المتعمقين والسطحيين الخرافيين ·

وانتقلت الانوثة الى السيوف ! وفى صراعها مع السيف غلبته والبسته معنى اللين بدلا من ان يكسبها معنى الصلابة والمضاء · قالوا الانيث مـن السيوف والمثناث والمثناثة والمؤنث : ما كان من حديد غير ذكر ! اى ما كانت حديدته لينة .. انثى !

الخنثـى :

ان ابدال حرف الخاء بالهمزة قليل فى العربيـة لكنه موجود ، مثل : الاباش والخباش (بالتشديد) : الكاسب ، والتأود والتخود (بالتشديد) .. ومن ذلك ايضا : الانثى والخنثى ·

---

* الكرد ، زنة الطرد : اصل العنق ·

وقد كانت الكلمتان مترادفتين أول امرها بدليل اطلاقهم (الخنثى) على (الانثى) · ومن ذلك ايضا قولهم خنثه تخنيثا بمعنى انثه تأنيثا ، ثم استعمالهم التخنث بمعنى التثنى والتكسر من الرجال والنساء ، وهو شبيه بقولهم تأنث تأنثا : صار انثى ، او لان وتساهل · ثم بولغ فى معنى اللين والتساهل حتى انتهى الى الضعف حيث قالوا تخنث المرء (رجلا او امراة) : سقط من الضعف ·

أما الخناث (كالخلاف) فهو بالعراقية : منسال المراة او غيرها من اناث الحيوان ·

ويقول اللسان : « **واصل الاختناث : التكسر والتثنى ، ومنه سميت المراة خنثى** » · هنا ايضا يكون الصحيح العكس ، اى ان التثنى والتكسر هما اللذان نجما من الانثى والخنثى ·

ثم اطلقت (الخنثى) على الانسان الذى له اعضاء الرجل والمراة معا ·

الانسان :

ولا نرى كبير مفخرة للعرب فى استعارة معانى التثنى واللين والسهولة والخصب من الانثى للكثير فى الاشياء ، فان هذه الخلال يحسها ويستطيبها الرجل من جميع الاقوام ، وانما يستاهل العرب التقدير لعمق احساسهم بالمعنى (الانسانى) الكبير فى العلاقة بين (الاثنين) — الرجل والمراة — واستيلادهم منها معانى الانس والايناس والناس .. والانسانية !

فالانثى احس العربى فى وجدانه انها لم تكن له مادة استمتاع منسلى وحسب ، بل هى كذلك سكن والف ونصف متمم · فمن اجل هذا لما نشات لهم من (الانثى) صيغة (الانس) خلعوا عليها معنى الطمانينة والركون والانجذاب وكل المعانى المضادة للوحشة * ·

وظل المعنى يتطور حتى صار يدل على البهجة والانشراح ، نجد ذلك باقيا فى الدارجات ·

وينطق بالعراقية (ونسة) — بالكسر · ويقولون بالموصلية مثلا : كلوا معانا عالونس ، اى كلوا معنا للاثتناس (اى للانس والايناس) · لكن معنى السرور والبهجة فى (الانس) قديم عند العرب مع انه اختفى من هذه الصيغة فى معاجمهم · دليل ذلك انهم كانوا فى الجاهلية يسمون يوم الخميس (مؤانسا) — « **لانهم كانوا يميلون فيه الى الملاذ** » — اللسان ·

واذا كانت (الانثى) هى مصدر (الانس) بمعنى الالفة والتمازج الروحى أول الامر فقد عم المعنى فشمل الجنس الخشن ايضا باعتبار كل من القرينين (انسا) للآخر ، فليست المراة اقل (استئناسا) برجلها منه بها ، فمن هنا اصبحت صيغة (الانسان) تشمل الاثنين ، حتى لقد ندر عندهم تانيثها على (أنسانة) ·

ولعل هذا مع ما تقدم من ملابسات وتاثيلات يؤيد للقارىء تخطئتنا للشاعر — الا اذا كان مازحا — فى قوله : وما سمى الانسان الا لنسيه ·

ومن الانسان طبعا نشات (الانسانية) بمعانيها الجليلة · لكنهم كثيرا ما يصفونها بالمعذبة ، مع الاسف، ولعلها اصدق اوصافها ، ولا سيما انها هى المعذبة لنفسها ·

والانسان نطقه بعضهم (الايسان) ليقول قائلهم : ما رايت ثم ايسانا · وهم يجمعونه على اياسين . لغة طىء ·

ونطق نون الانسان ياءا عند بعضهم يذكرنا بنطق سين الناس تاءا عند آخرين ، فى قول شاعرهم :

يا قبح الله بنى السعلاة
عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا باخيار ولا اكياسات !

لكن هؤلاء لا ينطقون السين تاءا فى (الناس) وحدها بل فى كل الالفاظ المماثلة كما نرى فى الاكيات ، اى الاكياس (من الكياسة) ·

---

* المعجم العربى يعرف الانس بانه خلاف الوحشة ، ويعرف الوحشة بانها خلاف الانس !

وقالوا « جارية آنسة : طيبة الحديث » · المتأخرون صاروا يطلقون (الآنسة) على العذراء ، او بعبارة ادق على الانثى البشرية التى لم تتزوج · ولم يلتفتوا الى ان هذا المعنى اذا قورن بالمعنى القديم صار المفهوم منهما أن الانثى اذا تزوجت خبث حديثها · ان النكات تكثر عن ثرثرة الزوجات لا عن خبث حديثهن·

اما الليث فيقول : « **جارية آنسة : اذا كانت طيبة النفس** (كالنفع) **تحب قربك وحديثك** » ــ وهذا يجعل نتيجة المقارنة أوجع ، لان هذا الاستعمال الحديث يحرم المتزوجة من هذه الشمائل الحلوة · ومن رايى أن على الازواج أن يقدموا احتجاجا على ذلك ، ان كانوا غير موافقين عليه ·

ومن (الآنسة) نشأت صيغة (العانس). واختصت بالمراة التى تبقى زمانا غير متزوجة ، بعد البلوغ · (وقد تطلق على الرجل) ، ومن هناك صيغ الفعل عنسها أهلها تعنيسا : حبسوها عن الزواج حتى جاوزت فتاء السن ولما تعجز ·

وللكلمة معان أخرى نكتفى منها بهذا الذى ذكرنا لفضح تحيز التطور ومجافاته النصفة بين لفظتين مشتقتين من مادة واحدة فيحابى هذه (الآنسة) ويجور على الاخرى (العانس) ·

و (الانس) بالكسر : « البشر ، غير الملائكة والجن » ويمكننا أن نضيف : وغير الشياطين · بالعراقية يقولون : « لا انس ولا جنس » تعبيرا عن خلو المكان من كل ذى حياة · اى انهم ينطقون الجن (جنس) اتباعا ·

و (الانس) بالتحريك ، يعنى : الجماعة الكثيرة· ومن الغريب أن الخنث (كالشرس) أيضا تعنى شيئا قريبا من ذلك اى : الجماعة المتفرقة ، مما يؤيد الصلة بين مادة الانثى والخنثى والانس (اى الناس) .

وجمع الانس : آناس (زنة آمال) · ولا بد أن هذا أو شبهه قد كان أثل (الناس) · ويقول المعجميون ان (الناس) : جمع (الانسان) ، ولسنا متأكدين من صحة ذلك لان لدينا بمعنى جماعة البشر : (الاناس) ايضا · وهى تشبه صيغة الاناثى (كالحبالى) التى مرت بنا قبل ، جمع الانثى ·

وقالوا كذلك ان « **النواس** (كالصراف) : **الناس يكون من الانس والجن ، جمع انس ، اصله اناس ، جمع عزيز ادخل عليه ال** » ــ اللسان ·

أما الجمع الانثوى فله عديد من الصيغ : النسوة (بالفتح أو الكسر) والنساء والنسوان (بالضم أو الكسر) والنسون (كالمئون) والنسنين (كالغسلين) ، وكلها جموع (المراة) التى لا جمع لها من لفظها ·

من معنى (الانس) بالضم ، أيضا سميت النار : مانوسة والمانوسة والانيسة · اللسان : « **ويسمونها السكن** (بالتحريك) **لان الانسان اذا آنسها** (اى ابصرها) **ليلا انس بها وسكن اليها وزالت عنه الوحشة وان كان بالارض القفر** » · وهذا عين الصواب ، لان الابصار قد جاء اولا من هذا السكن ــ الذى هو أيضا من اسماء النار ــ وزوال الوحشة عند رؤية النار ليلا لانها كانت للمسافر والمنقطع بشيرا بالوصول الى ناس من البشر يؤنس بهم ويلتجأ اليهم ويوجد لديهم على الاغلب زاد وقرى ، ولا سيما أن اجاويد العرب كانوا يوقدون النار فى الليل على رؤوس الآكام والمشارف لاستجلاب الضيفان من جائع وتائه وملهوف ·

و (السكن) بالتحريك : « **ما يسكن اليه وفيه ويستانس به ، والرحمة ، والبركة** » · فاذا هم اطلقوا هذا (السكن) المبارك على النار كما تقدم فلا عجب أن يطلقوا عليها كذلك (المانوسة) بمعنى المأنوس بها و (الانيسة) وهى من صيغ المفعولية ايضا · ثم هم لكثرة ذكرهم اياها وحبهم لها وعرفانهم لفضلها استطوا عنها اداة التعريف اكبارا واحتفالا فدعوها (مانوسة)·

وصاروا يقولون (آنست نارا) بمعنى أنست بها ، ثم بمعنى أحسست بوجودها وتوقعت رؤيتها ، مثلما تقول آنست فيه مخايل النبل والشرف اى توسمتها فيه أو شممتها منه · ثم انتقل معنى (آنست نارا) الى الرؤية ·

من معنى التوقع الذى نخمنه ظهر قولهم « استأنس : استعلم » (اى بحث عن المتوقع من الامر اولا ، ثم بمعنى سأل ليعلم ما لا يعلم) ·

وقياسا على معنى الابصار قالوا « آنس صوتا : سمعه » ·

أما قولهم « تأنس : ضد توحش ، وبمعنى صار انسانا » فناشىء من استعمالهم الانسان بمعنى من ليس حيوانا · لكن الكلمة ملتبسة المعنى ، فاذا نحن قرانا (التأنس) او سمعناها وحدها بدون قرينة لا تفهم منها معنى كلمة (التأنسن) التى صارت تستعمل حديثا بمعنى : صار انسانا ــ خلافا للقاعدة التى تسقط النون الثانية من (الانسان) فى مثل هــذا الموطــن ــ باعتبارها حرفا زائدا ·

فى اللاتينية (ignis) تعنى النار · وهى قريبة جدا من اسمها العربى (انيسة) اذا نطقت على طريقة أهلها اللاتين : (انيس) ــ زنة اجلس · وما زال الحــرف (g) فى الايطالية والفرنسية ايضا ، اذا جاء قبل النون فى كلمة ، يلفظ ياءا بعد النون ، اى بتغيير نطق وابدال مكان ، مثل (ماناييتكو ــ (magnetico بالاولى و (ماناييتيك ــ (magnetique بالثانية : مغناطيسى ·

ويقتضينا الانصاف ورد الحقوق الى اهلهــا ان نقول ان ملاحظة هذا الشبه بين الكلمتين (انيسة) و (انيس ــ ignis) فى العربية واللاتينية قد سبقتنا اليها الاب انستاس الكرملى · غير انه لم يقل الى اية من اللغتين تنتمى الكلمة اثلا ، اى انه لم يقرر هل هى اللاتينية التى اقتبستها جاهزة من العربية ام ان العربية هى التى اقتبستها بمعنى النــار مــن اللاتينيــة ثــم اشتقــت منهــا معــانــى الابصــــار والسكــــن والالفة وغيرها · والسبب هو انه لم يلتفت الى تعليل تطورات تسميتها فى العربية ·

نضيف الى ما تقدم ان (Ignis) ترد فى الانكليزية اسم علم نسائى على الاغلب ، وتنطق على الطريقة الانكليزية لا الفرنسية ،اى (اكنس) ·ومنها (Ignition) اشتعــال ·

النسنــاس :

اشتقوا من (الناس) صيغة (النسناس) : **« خلق فى صورة الناس مشتق منه لضعف خلقتهم (!) قال كراع : النسناس** (بالفتح) **والنسناس** (بالكسر) **فيما يقال دابة فى عداد الوحش تصاد وتؤكل وهى على شكل الانسان ، بعين واحدة ورجل ويــد تتكلم مثــل الانسان** (!) . . **التهديب : النسنــاس والنسنــاس** (بالفتح والكسر) : **خلق على صورة بنى آدم اشبهوهم فى شىء وخالفوهم فى شىء ؛ وليسوا من بنى آدم ، وقيل هم من بنى آدم . . »**

* * *

فى دارجات ديار الشام يطلقون (النسناس) على القرد · ونحسب ان هذا هو اصل المعنى لما بين القرد و (الناس) الذين اشتق اسمه (النسناس) من اسمهم من شبه صراح · وما اكثر ما قيل فى الحكايات والاساطير ان القرد كان انسانا ثم مسخه الله لانه اقترف كذا وكذا من سوء او معصية ثم أمعنت الحكايات فى الخيال فجعلت له رجلا واحدة وعينا واحدة على نحو ما رواه اللسان وغيره ·

لا غرابة اذن فى اشتقاق النسناس من (الناس) التى اشتقوا منها كذلك ما هو ارفع من النسنــاس قدرا ، نعنى النسنين (بالكسر) : النساء ، معذرة ·

وليكن ذكر النساء هنا ــ بعد النسناس ــ من باب « ختامها مسك » ·

عبد الحق فاضل

القياس اللغوي

(وأهميته في تطوير اللغة)

الأستاذ شاكر طوفان العيساوي

بكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الاسلامية
من كلية الفقه ـ العراق ـ النجف الاشرف

مقدمة البحث :

من المشاكل التي تواجه اللغة العربية اليوم مشكلة تطورها ومسايرتها لركب الحضارة ، لان اللغة ـ كما اثبت علم اللغة الحديث وعلماء الاجتماع عند دراستهم للظواهر الاجتماعية ـ ظاهرة اجتماعية مكتسبة كبقية الظواهر تتأثر بالمجتمع وتطوراته وتواكبه في سيره المختلف الاتجاهات . فاللغة والمجتمع متفاعلان لا ينفكان عن التفاعل ابدا ، ومن الخطأ ان نعتبر اللغة كائنا مثاليا يسير في تطوره مستقلا عن بني الانسان متجها نحو غاياته الخاصة (1) . فهي قبل كل شيء اداة للتفاهم الذي بدونه يصعب تكوين المجتمعات لان الافكار التي تملأ ذهن الفرد والعواطف التي تجيش في صدره ما كانت لتصل الى فرد آخر وتؤثر فيه وتدعوه الى التآلف لولا التعبير عنها باللغة ، ولولا هذا التعبير لباعد بينهما حاجز لا يزيله استعمال الاشارات المبهمة والاصوات الخرساء ، ولذلك نجد ان المرء اذا عاش بين قوم لا يحسن لغتهم تعاظم شعوره بالغربة والوحدة ، وانه متى ما وجد من يتكلم بلسانه سعى اليه سعي المشتاق والفه بكل يسر .

وللغة ارتباط وثيق بحضارة المجتمع، فاذا اتسعت حضارة امة من الامم وازدهرت وكثرت حاجاتها وتعددت مرافق حياتها نهضت لغتها فتكثر مفرداتها ويتغير تركيبها في سبيل التعبير عن المسميات والافكار الجديدة التي احدثها التمدن والتحضر ، اما اذا تخلفت الامة حضاريا واستكانت لجهل يخيم عليها فان لغتها ستكون

(1) اللغة : ج . فندرس ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ص 3 .

رفيقة لذلك التأخر والتخلف فتراها ركيكة التركيب قليلة المفردات غير محددة المعانى ان لم نقل انها عقيمتها. واللغة مرآة المجتمع لانها ليست الفاظا فحسب بل هى آداب وعادات واعراف وتقاليد وطرق تفكير ولون من الوان الشعور علاوة على كونها وسيلة من وسائل التعبير ، ولذلك تعتبر اللغة اصدق سجل لتاريخ الامم والشعوب اذا ما احسن تتبع مراحل تطورها ودرس خصائص كل مرحلة منها .

ووسائل انهاض اللغة وتطويرها كثيرة : اخصها (أ) الوضع اشتقاقا وتجوزا وارتجالا (ب) اطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس (ج) تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما سمع اليوم من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين (د) التسليم بالتعريب (هـ) الاعتداد بالالفاظ المولدة ومساواتها بالالفاظ المأثورة (2) .

ومع هذه الوسائل اخترت القياس ليكون موضوع هذا البحث اعنى القياس اللغوى لا القياس النحوى المصنوع الذى يتحدثون عنه بقولهم : اعرب المضارع قياسا على الاسم .. الخ . وقولهم : نصبت لا النافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على ان لمشابهتها اياها فى التوكيد .. الى غير ذلك من امور ليست الا صناعة نحوية لا تمت الى القياس اللغوى بصلة لانها من علل النحاة المخترعة والتى ادعوا ان العرب راعوها فى التفرقة بين الاساليب وكأنما كان كل العرب الاقدمين علماء فى النحو يدركون علله وحيله كما ادركها اصحاب النحو من المتأخرين .

وقد فصلت القول فى انواع القياس فى الفصل الاول من هذا البحث . وهذا الموضوع تشعبت فيه انظار الباحثين فى العربية فبعد اتفاقهم على العمل بالقياس وتضافر عباراتهم على انه من مآخذ اللغة يغلو بعضهم فى التعلق به ويجرى فيه بغير عنان ولا يجد فى نفسه حرجا من أن يفقد الكلام صبغته العربية. ووقف آخرون عند حد يقرب من موقف الجامد على الرواية فى أوضاع الكلام ووجوه تأليفها (3) .

والطريق الوسط بين هذين الطرفين هو ما يبقى على اللغة شعارها ويبسط فى نطاقها بمقدار ما يتسوغه الذوق العربى وتقتضيه العلوم على اتساع دائرتها والمدنية على اختلاف اطوارها وتجدد مرافقها .

والحاجة الى القياس فى اللغة ضرورة لان اللغة وضعت ليعبر بها الانسان عما يبدو له من المآرب ويتردد فى نفسه من المعانى ، ومن البين جليا أن المعانى تبلغ من الكثرة ان تضيق عليها دائرة الحصر وتنتهى دونها أرقام الحاسبين ، فلم يكن من حكمة الواضع سوى أن وضع لكثير من المعانى الفاظا عينها كالسماء والمطر والنبات والعلم والعقل ، وتوسل للدلالة على يقينها بمقاييس تلدها ، والكلم التى تصاغ على مثال هذه المقاييس معدودة فى جملة ما هو عربى فصيح .

ولولا هذه المقاييس لضاقت اللغة على الناطق بها فيقع فى نقيصة العى والفهاهة ويكثر من الاشارات التى تخرج به عن حسن السمت والرزانة ويرتكب التشابيه محاولا بها افادة المعنى لا كما يستعملها اليوم حلية للمنطق ومظهرا من مظاهر البلاغة .

فالقياس على هذا الاساس طريق يسهل به القيام على اللغة ووسيلة تمكن الانسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون ان تقرع سمعه من قبل ، ويحتاج فى الوثوق من صحة عربيتها الى مطالعة كتب اللغة أو الدواوين الجامعة لمنثور العرب ومنظومها .

ورب قائل يقول : ان فى اللغة العربية الفاظا مترادفة بالغة فى الكثرة اذ يكون للمعنى الواحد عشرات أو مئات من الاسماء واود لو صرف الواضع هذه المترادفات الى جانب من المعانى التى تركها لحكم القياس .

وجواب هذا : أن للمترادفات فى بلاغة القول ورصانة تأليف الكلم واقامة وزن الشعر وتمكين القافية فضلا لا يغنى غيرها غناءها فهى من مفاخر اللغة ودلائل سعة بيانها ، فالمترادفات تسد وجوها من الحاجة غير الوجوه التى يسدها القياس ، ولا ننس أن الكثير من

---

(2) وهذه الوسائل اقرها مجمع اللغة العربية فى القاهرة .
(3) من أسرار اللغة : ابراهيم انيس ص 15 وما بعدها .

هذه المترادفات قد نشأ من تعدد اللغات عند القبائل أو من ملاحظة اختلاف دقيق فى الاحوال والصفات ·

وحين رجعت أبحث فى فهارس الكتب لعلى ارى منفذا ادخل فيه لاطل على البحث ، وفى حدود تتبعى لكتب اللغة واستعانتى ببعض الفهارس لم أجد فى كتب القدماء من بحث فى هذا الموضوع بحثا مفصلا ومتبعا منهجا ، فسيبويه فى كتابه يذكر أنماطا كثيرة من اقيسته واقيسة استاذه الخليل مبعثرة فى ابواب شتى ، وكذلك ابى جنى فى كتابه الخصائص ولكنه لم يختلف عنه فى انه افرد بابا فى بحث القياس فى اللغة فى الجزء الاول عنوانه (باب فى اللغة تؤخذ قياسا) ·

وعلى هذا النهج سار السيوطى فى كتابه (المزهر فى علوم اللغة) ، فهو لم يفرد بابا ولم ينهج منهجا بل يذكر اقيسة للكلمات ، أما فى كتابه « الاقتراح » فهو يبحث فى اصول النحو فصل القول فيه عن القياس النحوى ولم يتطرق الى القياس اللغوى الا فى بعض الامثلة ·

قد يتبادر الى الذهن من هذا ان القدماء لم يبحثوا فى القياس · ويمكن رده : ان هذا هو منهج القدماء فى تاليفهم ·

أما فى كتب المحدثين فلم أجد من كتب فى الموضوع الا فى عدد من الكتب لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وحتى هؤلاء منهم من كتب فى القياس اللغوى وخصه بجموع التكسير · (4) ومنهم من بحث فيه بحثا عاما ولم ينهج منهجا خاصا (5) · ومنهم من خلط بين القياس النحوى والقياس اللغوى (6) ·

ومن هنا رايت ان للموضوع اهمية كبرى من حيث كونه ينشد تطوير اللغة بالاضافة الى انه نتاج جديد · وبعد جمع المعلومات قسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الاول ويشتمل على :

ا ــ تعريف القياس لغة واصطلاحا ·

ب ــ انواع القياس والقياس المبحوث هنا عنه هو المسمى بالقياس الطبيعى على رأى وبالقياس الاصلى على رأى آخر ·

الفصل الثانى ويشتمل على :

القياس الاصلى وما يقاس عليه ويتفرع الى :

ا ــ القرآن الكريم ·

ب ــ الحديث الشريف

ج ــ كلام العرب

د ــ القياس على الشاذ

هـ ــ القياس على ما لا بد من تاويله بخلاف الظاهر ·

و ــ القياس فى صيغ الكلم واشتقاقها ، وخصصنا النظر على القياس فى المصادر ·

الفصل الثالث : القياس ومجمع اللغة العربية :

وقد قدمت هذه الفصول بتمهيد عنوانه (لمحة تاريخية عن القياس فى اللغة) · وهو عبارة عن موقف القدماء من القياس وبدأناه بقياس ابى على الفارسى وتلميذه ابن جنى وهما رأس مدرسة القياس ·

أما موقف المحدثين فقد تكلمنا عنه بالتفصيل فى الفصل الثالث (القياس ومجمع اللغة العربية) وذكرنا فيه أن أول من نادى بضرورة تطوير اللغة عن طريق وضع مصطلحات عربية للمستحدثات الجديدة او عن طريق الاشتقاق والمجاز والقياس ، والتعريب والتوليد ــ المجمع العلمى العربى بدمشق الذى تأسس سنة

---

(4) كالاستاذ أحمد الاسكندرى فى بحثه الذى تقدم به الى مجمع اللغة العربية بعنوان (جموع التكسير القياسية) ·
(5) كالاستاذ أحمد أمين فى بحثه (مدرسة القياس فى اللغة) ·
(6) كالاستاذ سعيد الافغانى فى كتابه (فى اصول النحو) ·

(1918) واستمر بمجمع دمشق هذا النشاط ستة عشر عاما ثم ظهر مجمع فؤاد الى الوجود وبدا عمله سنة (1934) واصدر مجلة باسم (مجلة مجمع اللغة العربية) بعد تغيير اسم المجمع الى هذا الاسم. وتضم المجلة بين طياتها البحوث والمحاضرات التى يلقيها الاعضاء العاملون بالاضافة الى المصطلحات الجديدة التى يقرها المجمع فى كل دورة يعقدها ، وقد ادرجنا القرارات التى أقرها المجمع فى هذا الشأن ثم نبذة مختصرة عن البحوث التى تقدم بها الاعضاء العاملون فى المجمع عن القياس وموقفهم منه ، وانهينا البحث بخاتمة تنطوى على نتائج .

والحقيقة ان هذه لم تكن اول محاولة ولا ثانيتها ندعيها لانفسنا وانما هى صوت يرتفع الى جانب تلك الاصوات التى نادت بضرورة تطوير لغة القرآن لتساير التطور الاجتماعى والحضارى وما يتطلبه من تجديد فى اللغة وهذا ما اعتقده مسايرا لمنهج المكتب الدائم لتنسيق التعريب وما توفيقى الا بالله ومنه استمد العون .

شاكر طوقان

10 ايلول سبتمبر 1972

(لمحة تاريخية عن القياس)

تمهيد للبحث :

بدا العلماء يجمعون اللغة من افواه العرب سواء فى الفاظها او اساليبها ، وقد بذلوا فى ذلك جهدا مشكورا ، وتحملوا فى ذلك من العذاب مالا يستطيعه الا ذوو الهمم العالية ، وفضلوا أن يأخذوا عن العرب العرباء الذين لم تفسدهم الحضارة ولا الاختلاط وعدوا هذه القبائل اصح من تؤخذ عنهم اللغة هم قيس وتميم واسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يأخذوا عن غيرهم من سائر قبائلهم كما لم يأخذوا عن حضرى ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم :

وكان هذا الجمع هو المادة الخام للغويين والنحويين ، فأما النحويون والصرفيون فقد برعوا فى القياس الى اقصى حد ، فكل علمهم قياس . نظروا الى الاعم الاغلب فجعلوه قاعدة وجعلوا ما جاء على خلافها شاذا لا يصح لنا الاتيان بمثله ، فالعرب لم تلتزم مثلا نصب اسم ان ولا رفع خبرها ولا عطف المرفوع على المرفوع والمنصوب على المنصوب وهكذا ، بل ورد فى القرآن رفع اسم ان فى قوله تعالى : « ان هذان لساحران » (7) . وجاء فيه : « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » (8) . وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى » (9) . فقعدوا قواعدهم على الكثير الغالب . وكذلك الصرفيون فى قواعد الاعلال والابدال واشتقاق صيغ اسم الفاعل والمفعول والزمان والمكان . .

فضبطوا بذلك اللغة فى اختصاصهم ، وكل هذا عن طريق القياس ، أما اللغويون فسادت عليهم المحافظة وقلت فيهم الحرية ، وليس الاختلاف فى ان اللغة توقيفية أو غير توقيفية الا مظهرا من مظاهر المحافظة والحرية ، فمن قال بأنها توقيفية او بعبارة اخرى من وضع الله اصبغ عليها حلة من التقديس والتزمها من غير تصرف بها . ومن قال أنها غير توقيفية أو بعبارة اخرى من وضع البشر كان اكثر حرية فى التصرف فيها .

فاللغويون كثيرا وقفوا عند ما ورد وكانوا محافظين ، ومن هؤلاء جامعوا اللغة كالاصمعى وابن الاعرابى وابى زيد ، فلم يكونوا يستبيحون لانفسهم ان يقولوا كلمة او يشتقوا اشتقاقا الا عن سماع . ومن هؤلاء ايضا اصحاب المعاجم كالجوهرى والفيروزابادى وابن منظور ، فلم يقيسوا على ما رووا ، وان اختلف بعضهم عن بعض فى زيادة الكمية المروية أو نقصها ، وكثرة الاستشهاد وقلته ، وذكر اسماء البلاد والاعلام او عدمه ونحو ذلك .

وبجانب ذلك قلة من القياسيين او بعبارة اخرى مدرسة القياس وهم اصحاب مذهب (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، الا ترى انك لم تسمع

---

(7) سورة طه 20 — 63 .
(8) سورة النساء 4 — 162 .
(9) سورة الحج 22 — 17 .

انت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وانما سمعت بعضها فقست عليه غيره) (10) واليهم يرجع الفضل فى حياة اللغة · الحياة النشيطة حتى ايامنا هذه ، فقد حافظوا على روحها وتعهدوها بالغذاء فنمت وبسقت واظلت فروعها حضارات مختلفة · ومع انتسابهم جميعا الى مذهب القياس يتفاوتون فيما بينهم فيه توسيعا وتضييقا ·

لم يكن أرباب القياس على بدع من الامر ، فأصحاب اللغة انفسهم اتسعوا فى طردها وتصريفها واشتقاقها بما سبقوا به ارباب القياس انفسهم (فان الاعرابى اذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه اليه احد قبله) (11) ·

هذا رؤبه وابوه العجاج الراجزان المشهوران (انهما قاسا اللغة وتصرفا فيها واقدما على ما لم يات به من قبلهما) (12) وحكى انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها ، ومن يتصفح شعر الراجزين يجد مصداق هذا القول ·

فالنزعة الى تعميم القياس قديمة من ايام الخليل، وكانت الى جانبها نزعة محافظة معتدلة يمثلها ابن قتيبة ، فقد ذهب فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) الى انه ليس لمتاخر الشعراء (ان يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا) واستشهد لذلك برأى الخليل ، فقد ذكر أن الخليل بن احمد اتاه رجل فانشده :

(ترافع العز بنا فارفنعما)

فقال الخليل : (ليس هذا شيئا) فقال الرجل : كيف جاز للعجاج ان يقول :

(تقاعس العز بنا فاتعنسسا)

ولا يجوز لى ؟

ويروى عن بشار انه كان يقيس ما لم يرد على ما ورد ، فرأى العرب صاغت (فعلى) من الفعل للدلالة على السرعة فقالوا :

جمزى لسرعة السير فقاس عليها فقال :

والآن اقصر عن سمية باطلى
واشار بالوجلى على مشير

وقال :

على الغزلى منى السلام فربما
لهوت بها فى ظل مخضلة زهر

فعابوه وقالوا : (لم يسمع من العرب وجلى ولا غزلى) (13) ·

وقع هذا وامثاله فى المئة الثانية للهجرة ، فاصبح من الطبيعى نشوء اخذ ورد حول القياس بين المجيزين والمانعين او بين المجددين والمحافظين ، وان ينتهى هذا الجدل بنشوء مدرسة القياس ، لها رسومها ونظمها ، حاولت فرض سيطرتها حتى على اصحاب اللغة فخطوا بعض الشعراء الجاهليين والاسلاميين وحكموا على ابيات بالشذوذ لعدم انطباقها على قواعدهم ·

وكان من اعلام هذه المدرسة الخليل وتلميذه سيبويه وابو على الفارسى وتلميذه ابن جنى · وقد عاصرت هذه المدرسة مدرسة اخرى فى الفقه تشابهها ، هى مدرسة الراى ، ولا غرابة فى ذلك فالقوم حينئذ كانوا مدفوعين بحكم الضرورة الى تاسيس بنيانهم الفكرى تلبية لحاجات الحضارة اذ ذاك ·

(من قياس الخليل وتلميذه سيبويه)

لم يكن الخليل اول القياسيين فى اللغة ، بل سبقه من شيوخه من ضرب فى القياس بسهم ، ولكن الخليل كان فيهم كما قال ابن جنى : (سيد قومه وكاشف قناع القياس فى علمه) (14) ويعتبر انه واضع اساس

---

(10) الخصائص ، ابن جنى ج 1 ص 357 ، كلمة المازنى وابى على الفارسى ·
(11) المصدر السابق ج 2 ص 25 ·
(12) الاقتراح ــ السيوطى ص 53 ·
(13) فى اصول النحو ــ سعيد الافغانى ص 82 ·
(14) الخصائص ــ ابن جنى ج 1 ص 361 ·

المعاجم وله اول معجم الف فى العربية وانه مبتكر العروض لقياس الشعر ، وعلى هذا الاساس لم تستكثر ان يكون لهذا الذهن تلك المرانة المولدة فى اللغة والنحو بحيث يرجع اليه الفضل فى اظهار معالم القياس ووضع رسومه ومناهجه .

ونجد فى كتاب سيبويه وهو من املاء استاذه الخليل انماطا كثيرة من قياسه مبعثرة فى ابواب شتى . وهذه انماط من صنيعه : نسبت العرب الى تهامة فقالت : تهامى على القياس وتهام على غير القياس كما قالت : « شآمى » و « شآم » . وجعلوا الف تهام بدلا من احدى ياءى النسب ، قال ابن جنى : (فان قلت ان فى تهامة الفا فلم ذهبت الى ان الالف فى تهام عوض من احدى الياءين ؟) فقد (قال الخليل فى هذا : انهم كأنهم نسبوه الى (فعل او فعل) وكأنهم فكوا صيغة تهامة فأصاروها الى (تهم او تهم) ثم اضافوا (اى نسبوا) فقالوا : تهام . وانما ميل الخليل بين (فعل او فعل) ولم يقطع بأحدهما لانه قد جاء هذا العمل فى هذين المثالين جميعا وهو (الشآم واليمن). وهذا الترجيم الذى اشرف عليه الخليل ظنا قد جاء به السماع نصا :

انشدنا ابو على قال : انشدنا احمد بن يحيى « ثعلب » :

ارقنى الليلة برق بالتهم
يا لك برقا من يشمه لا ينم

فانظر الى قوة تصور الخليل الى ان هجم به الظن على اليقين ، فهو المعنى بقوله :

(الالمعى الذى يظن بك الظـ
ـن كأن قد راى وقد سمعا) (15)

استمر القياس على الطريق ، ذهب فيه الخليل وسيبويه حتى كانت المئة الرابعة للهجرة ، فبلغ ذروة مجده بأبى على الفارسى وتلميذه ابن جنى ، ونهض به هذان الامامان نهضة لم يخط احد بمثلها قبلهما ولا بعدهما حتى اليوم .

(من قياس الفارسى)

اما ابو على الفارسى فهو فارسى الاب عربى الام . مات ببغداد سنة 377 هـ فى ايام الطائع لله عن نيف وتسعين سنة . طوف كثيرا فى بلاد الشام ، واقام بحلب مدة وخدم سيف الدولة ابن حمدان ثم رجع الى بغداد وخدم عضد الدولة وبقى بها الى ان مات وقد كان معاصرا لابى سعيد السيرافى وكان ابو سعيد هذا اكثر من الفارسى رواية وكان الفارسى اكثر منه قياسا حتى لقد قال ابو على الفارسى : (لان اخطىء فى خمسين مسألة مما بابه الرواية احب الى من ان اخطىء فى مسألة واحدة قياسية) وقد قال فيه بعض تلاميذه : (احسب ان ابا على قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث ما وقع لجميع اصحابنا) (16) . وما العلل الا مقدمة القياس .

وكان يقول : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب فاذا اعربت لفظة اعجمية اجريت عليها احكام الاعراب وعددتها من كلام العرب واجيز الاشتقاق منها كما عرب العرب لفظة الدرهم واشتقوا منه درهمت الخبازى اى صارت كالدراهم وقالوا : رجل مدرهم اى كثرت دراهمه (17) .

وكان تلميذه ابن جنى يقرأ عليه كتابا للمازنى ، فلما جاء ذكر قول ابى عثمان فى الالحاق المطرد : (ان موضعه من جهة اللام نحو قعدد ومدد وشملل وصعرر . وجعل الالحاق بغير اللام شاذا لا يقاس عليه مثل : جوهر وبيطر وجدول .. الخ . قال ابو على : (لو شاء شاعر او ساجع او متسع ان يبنى بالحاق اللام اسما او فعلا او صفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب . وذلك نحو قولك : خرجج اكرم من ذخلك ، وضربب زيد عمروا ، ومررت برجل ضربب وكرمم ونحو ذلك . فاعترضه تلميذه ابن جنى قائلا : افترتجل اللغة ارتجالا ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو اذن من كلامهم ثم قال : الا ترى انك تقول : طاب الخشكنان . فتجعله من كلام العرب وان لم تكن العرب تكلمت به هكذا . قال فرفعك اياه

(15) الخصائص — ابن جنى ج 2 ص 111 .
(16) الخصائص — ابن جنى : ج 1 ص 208 و ج 2 ص 88 .
(17) نفس المصدر ج 1 ص 357 .

كرفعها ما صار لذلك محولا على كلامها ومنسوبا الى لغتها) (18) ·

وقد كان أبو على الفارسى جريئا الى حد لم نصل اليه الى اليوم فكان من رايه أن الالف اللينة فى الكلمة الثلاثية تكتب الفا مطلقا سواءا اكان أصلها واوا أم ياءا وقد علل ذلك بحمل الخط على اللفظ ·

من هذا يتضح ان مدرسة القياس حظيت من ثمرات تفكيره بفيض غزير · وحقا ما قال به ابن جنى فيه (ولله هو ! وعليه رحمته فما كان اقوى قياسه واشد بهذا العلم اللطيف الشريف انسه فكأنه انما كان مخلوقا له · وكيف لا يكون كذلك وقد اقام على هذه الطريقة مع جلة اصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة ، زائحة علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسدمه ، لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه فى منحر ولا يسوم به مطلبا ولا يخدم به رئيسا الا بآخرة وقد حط من اثقاله والقى عصا ترحاله) (19) ·

(من قياس ابن جنى)

أما اذا وصلنا الى ابن جنى فقد تبوانا ذروة القياس وفلسفته ولقد كان أعلى علماء العربية كعبا فى جميع عصورها وأغوصهم عامة على اسرار العربية وانجحهم فى الاهتداء الى النظريات العامة فيها · وكتابه الخصائص نحا فيه منحى جديدا طريفا يدل على تذوقه للغة وتعمقه فى فهم أسرارها ومحاولة فلسفتها ·

ويعتبر ابن جنى مبتدع نظرية الاشتقاق الكبير ومؤسس علم فقه اللغة ، أما التصريف فهو امامه دون منازع ، وقلما تقرأ كتابا فيه ولا يكون ابن جنى مرجع كثير من مسائله · وكتابه « سر الصناعة » من خير ما حفظ الزمان من هذا التراث ·

ولد بالموصل من اب رومى وتوفى ببغداد سنة 392 هـ فى خلافة القادر · صحب أستاذه الفارسى أربعين سنة وعاش مدة طويلة ببلاط سيف الدولة بحلب حيث أملى المسائل الحلبية ، ونشأت هناك بينه وبين المتنبى صداقة أساسها اعجاب كل منهما بمواهب الآخر ، وكان من نتائج ذلك ان شرح ديوان المتنبى ودافع عنه هجمات النقاد ، وكان المتنبى يقول فيه : (هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس) ويقول : (ابن جنى أعرف بشعرى منى) (20) ·

ونحن نتعرف الى منهجه فى القياس من كتابه (الخصائص) الذى يدور على الغوص على اسرار اللغة الشاملة ويطرد القياس ما استطاع الى ذلك سبيلا ثم ان اثر الفارسى فى تلميذه بارز فى هذا الكتاب وان هذا التلميذ الذى لقن هذا المذهب عن أستاذه قد مضى به بعيدا وتقدم الى الامام مسافات شاسعة وكان الحافز له على تاليفه هو انه راى الفقهاء وضعوا للفقه اصولا والمتكلمين وضعوا للعقائداصولا فأراد ان يضع للغة والنحو كذلك اصولا ، فكان بذلك واضع علم جديد يقول فيه : (انه من اشرف ما صنف فيه من علم العرب واذهبه فى طريق القياس والنظر واجمعه للادلة على ما اودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة) ·

وابن جنى كثير الانس بالتجربة اللغوية ، يقلبها على وجوهها المختلفة ويكثر التفكير فيها ثم يقابل بين اللغات التى يعرفها ليكون حكمه الشامل فى اللغة العربية حين يرده الى طبيعة الحس صحيحا الى حد بعيد ، والظاهر انه يعرف الفارسية ، فقد عرض لها فى حديثه عن اجتماع الساكنين فقال : (ومن طريف حديث اجتماع السواكن شىء وان كان فى لغة العجم فان طريق الحس موضع تتلاقى عليه طبائع البشر ويتحاكم اليه الاسود والاحمر · وذلك قولهم (ارد) للدقيق و (ماست) للبن فيجمعون بين ثلاثة سواكن الا أننى لم ار ذلك الا فيما كان ساكنه الاول الفا وذلك أن الالف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماست) كأنها (مست) (21) ·

---

(18) الخصائص — ابن جنى ج 1 ص 358 ·
(19) الخصائص ج 1 ص 276 ·
(20) معجم الادباء — ياقوت ج 12 ص 89 ·
(21) الخصائص — ج 1 ص 90 ·

وقد حذا حذو استاذه الفارسي في تعميم القياس وتوسيع طرق الاشتقاق ، وكان يقول : (مسألة واحدة من القياس انبل وانبه من كتاب لغة عند عيون الناس) (22) ·

ومن اقيسته عند ما تعرض للابدال وذكر لغات (فسطاط ، فستاط ، فساط) وان الجمع فيها (فساطيط ، وفساسيط) فقط وذهابهم الى ان التاء في فستاط بدل من السين او الطاء ورجحها بدل السين بقوله : (اذا حكمت بانها بدل من سين (فساط) ففيه شيئان جيدان : احدهما تغيير ثاني المثلين وهو اقيس من تغيير الاول من المثلين لان الاستكراه في الثاني يكون لا في الاول والآخر ان السينين في (فساط) ملتقيتان والطاءين من (فسطاط) منفصلتان بألف بينهما واستثقال المثلين ملتقيين احرى من استثقالهما متفرقين فعلى هذا الاعتبار ينبغي ان يلقى ما يرد من حديث الابدال) (23) ·

وقد اراد ان يشرح كتاب يعقوب بن السكيت في (القلب والابدال) على هذا النمط المنهجي لان معرفة (هذه الحال فيه امثل من معرفة عشرة امثال لغته) (24) · كما قال :

وابن جني لم يتخذ القياس مذهبا لنفسه فحسب بل كان يغري به ويدعو اليه ويحض عليه ويبيح فيه الارتجال فيقول : (- للانسان ان يرتجل من المذاهب ما يدعو اليه القياس ما لم يلو بنص او ينتهك حرمة شرع) (25) حتى اذا اراك القياس الى ما لم تنطق به العرب قط ، فليس لك ان ترمي به بل تعده (لشاعر مولد او لساجع او لضرورة ، لانه قياس على كلامهم) (26) ·

وهذه الكلمة تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام ابن جني بالقياس وقبل ان نختم الكلام عن ابن جني لا بد ان نقول كلمة عن الاشتقاق وهو من منجزات القياس وهو باب عظيم من ابواب فقه اللغة ابتدعه ابن جني وكان له فضل كبير فيما سمي بالاشتقاق الكبير وهو الذي سماه بهذا الاسم ، وكان قد تنبه اليه استاذه ابو علي الفارسي · قال ابن جني : (ان ابا علي رحمه الله كان يستحسن به ويخلد اليه ، لكنه مع ذلك لم يسمه ، وانما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح اليه) · فجاء ابن جني فوسعه ونماه وسماه وسمى الاشتقاق المعروف في ايدي الناس بالاشتقاق الصغير كأن يشتق من كتب : يكتب واكتب وكاتب ومكتوب ومكتب وكتاب .. الخ · اما الاشتقاق الكبير فيعنون به حصر اصول الكلمة وتقليبها على وجوهها المختلفة وان تستخرج منها التباديل والتوافيق وتقرن بينها ، كأن تأخذ كلمة « كلم » وتحولها الى : ك م ل م ك ل ، م ل ك ، ل ك م ، ل م ك وتمعن النظر فيها لتنظر هل هذه الحروف اذا اجتمعت كلها على نحو ما دلت على شيء واحد يتنوع بتنوع تركيب هذه الحروف : فتستخرج مثلا ان هذه الحروف الثلاثة اذا اجتمعت دلت على القوة وتستخرج معنى القوة من كل ما دلت عليه في اشكالها المختلفة ، وهذا باب عظيم من ابواب اصول اللغة تفوق فيه ابن جني ·

هذا ، واذا تصفحنا كتابا من كتب الطبقات في النحو واللغة ومررنا بمئات من تراجم النحويين واللغويين ، استطعنا بعد امعان قليل ان نلم بما كان للقياس من خطر عند القوم حتى ليتفرد واحد في المئة فيعرف به ، فاذا ترجموا له نصوا على امتيازه هذا ، وتلك ملكة لم تتوفر كاملة الا لاعلام قليلين جدا ·

(الفصل الاول)

أ ــ تعريف القياس لغة واصطلاحا :

1 ــ المعنى اللغوي :

(قيس) قاس الشيء يقيسه قيسا وقياسا واقتاسه وقيسه اذا قدره على مثاله ·

---

(22) الخصائص ــ ج 1 ص 88 ·
(23) نفس المصدر ــ ج 2 ص 87 ــ 88 ·
(24) نفس المصدر ــ ج 1 ص 88 ·
(25) نفس المصدر ج 1 ص 189 ·
(26) نفس المصدر ــ ج 1 ص 126 ·

فهن بالايدى مقيساته
مقدرات ومخيطاته (27)

2 ــ المعنى الاصطلاحى :

اما فى الاصطلاح فلم نجد من عرف القياس اللغوى تعريفا كاملا لان الذين بحثوا فى هذا الموضوع خلطوا بين تعريف القياس اللغوى وتعريف القياس النحوى ومن هذا الخلط فى التعاريف فضلنا تعريف ابن الانبارى بعد أن حذفنا منه بعض الالفاظ التى تجعل منه حدا للقياس النحوى الذى ذكره فى جدله وهو : (حمل غير المنقول على المنقول اذا كان فى معناه) (28) ·

وقد اختار هذا التعريف من المحدثين الاستاذ احمد الاسكندرى فقد عرف القياس اللغوى بأنه (حمل كلمة على نظيرها فى حكم) (29) واختاره من المحدثين ايضا الدكتور ابراهيم انيس (30) واليه ذهب الدكتور مهدى المخزومى فبعد ان ثمن حملة على الذين تمسكوا بالاستنتاج العقلى والتعليل والتقدير والتاويل فى اللغة والنحو ذكر أن القياس الذى يجب ان يتبع فى دراسة اللغة والنحو هو القياس القائم على اساس حمل مجهول على معلوم وحمل ما لم يسمع على ما سمع وحمل ما يجد من تعبير على ما اختزنته الذاكرة وحفظته ووعته من تعبيرات واساليب كانت قد عرفت او سمعت ، وذكر ايضا ان هذا القياس هو الطريق الطبيعى لنمو مادة اللغة واتساعها (30) مكرر ·

ب ــ انواع القياس والقياس المراد بحثه :

تجرى كلمة القياس عند البحث فى معانى الالفاظ العربية واحكامها فترد على اربعة وجوه :

احدها : حمل العرب لبعض الكلمات على اخرى واعطاؤها حكمها لوجه يجمع بينهما كما يقال : اعرب الفعل المضارع قياسا على الاسم لمشابهته ه فى احتماله لمعان لا يتبين المراد منها الا بالاعراب · والى هذا اشار الزمخشرى فى بعض مقاماته بقوله (ضارع الابرار بعمل التواب الاواب ، فالفعل لمضارعته الاسم فاز بالاعراب) ·

وكما يقال : دخلت الفاء خبر الموصول فنحو قولهم: (من يأتينى فله درهم) قياسا للموصول على الشرط لمشابهته اياه فى افادة العموم ·

وكما يقال : نصبت لا النافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على ان لمشابهتها اياها فى التوكيد ،فان لا تأتى لتأكيد النفى كما تأتى ان لتوكيد الاثبات ·

والقياس بهذا المعنى واقع من العرب انفسهم ويذكره النحاة تنبيها على علة الحكم الثابت عنهم بالنقل الصحيح (31) ·

وقد تقدم التعقيب على هذا النوع من انواع القياس وانه من عمل النحاة انفسهم ، وليس هذا الضرب من القياس داخلا فى موضوعنا ·

ثانيها : أن تعمد الى اسم وضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجودا وعدما ، فتعدى هذا الاسم الى معنى آخر تحقق فى ذلك الوصف وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة ، ومثال هذا اسم الخمر عند من يراه موضوعا للمعتصر من العنب خاصة ، وما وضع للمعتصر من العنب الا لوصف هو مخامرته للعقل وستره ، فاذا وجد عصير من غير العنب يشارك المعتصر من العنب فى الشدة المطربة المخمرة للعقل · فان من يقول بصحة هذا القياس يجعل هذا العصير من افراد الخمر ويسمه خمرا تسمية حقيقية لغوية ·

وهذا الضرب من القياس هو الذى ينظر اليه علماء اصول الفقه عند ما يتعرضون لمسألة (القياس فى الشريعة) ·

---

(27) لسان العرب ــ مادة (قيس) ·
(28) الاقتراح ــ للسيوطى ص 38 ·
(29) مجلة مجمع اللغة العربية ج 4 ص 174 ·
(30) من اسرار اللغة ــ ابراهيم انيس ص 16 ·
(30) (مكرر) فى النحو العربى ، نقد وتوجيه للدكتور مهدى المخزومى ص 20 ·
(31) دراسات فى العربية وتاريخها ص 27 ·

ثالثها : الحاق اللفظ بأمثالـــه فى حكم ثبت لهـــا باستقراء كلام العرب حتى انتظمت منه قاعدة عامـــة كصيغ النسب والتصغير والجمع واصـــل هـــذا أن الكلمات الواردة فى كلام العرب على حالـــة خاصـــة يستنبط منها علماء العربية قاعدة تخول المتكلم الحق فى ان يقيس على تلك الكلمات الواردة ما ينطق بـــه مـــن امثالهـــا ·

وقد اطلقوا على هذا النوع من القياس اسم القياس الاصلى وهو الذى سنتكلم عنـــه كمـــوضوع للبحـــث ·

رابعها : اعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها فى نوعها ، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه ، كما أجاز الجمهور ترخيم المركب المزجى قياسا على الاسماء المنتهية بتاء التأنيث ، وكما أجازت طائفةحذفالضمير المجرور العائد من الصلة الىالموصول متى تعين حرف الجر قياسا على حذف الضمير العائد من جملة الخبر الى المبتدا فتقول : (قضيت الليلة التى ولدت فى سرور) اى ولدت فيها لانك تقول : هذا الكتاب الورقة تساوى درهما اى الورقة منه بدرهم ·

وقد اطلق بعض الباحثين على هذا النوع من القياس اسم قياس التمثيل للفرق بينه وبين القيـــاس الاصلـــى ·

(الفصل الثـــانى)

القيـــاس الاصلى وما يقاس عليـــه

ذكر السيوطى فى الاقتراح أن الكلام الذى يوثق بفصاحته يشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم وكلام نبيه (ص) وكلام العرب قبل بعثته وفى زمنه وبعده الى أن فسدت الالسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم أو كافر فهذه ثلاثة انواع لا بد فى كل منها من الثبـــوت (32) ·

واللسان العربى يجمع تحت اسمه لغات شتى ولكنها تختلف فيما بينها اختلافا يسيرا ، ووجوه هذا الاختلاف معضلة فى كتب فقه اللغة وآدابها ولا تكاد تخرج عن اختلاف الكلمات ببعض حروفها أو حـــال من أحوالها كالحركة والسكون أو الاعراب والبناء أو الفك والادغام أو التصحيح والتعليل أو الامالة والتفخيم أو ترتيب الحروف أو المد والقصر أو الاتمام والنقص أو الاعمال والاهمال أو التذكير والتأنيث ، وقد يكون الاختلاف فى بعض الالفاظ من حيث وضعها فى لغة المعنى ووضعها لمعنى آخر فى لغة اخرى وهذا ما يطلق عليه بالاشتراك اللفظى او من حيث استعمال لفظ فى لغة المعنى واستعمال لفظ آخر فى لغة غيرها لذلك المعنى وهذا ما اصطلح عليه بالترادف · والترادف والاشتراك ميزتان من مميزات اللغة العربية ·

وقد تختلف هذه اللغات فى بعض وجوه النظم كتقديم عامل « كم » الخبرية عليها فانه يقدم فى لغة ولا يقدم فى اخرى ·

تتفاوت هذه اللغات بالجودة وفصاحة اللهجـــة وجميعها مما يصح القياس عليه ، قال ابن جنى فى الخصائص : (اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة مـــن لغـــات العـــرب مصيب غير مخطىء) (33) وقال أبو حيان فى شرح التسهيل : (كل ما كان لغة لقبيلة صح القياس عليه) ·

وبعد هذه المقدمة نأخذ الاصول التى ذكرهـــا السيوطى واحدة بعد الاخرى بشىء من التفصيل ·

أ ـــ القـــرآن الكـــريـــم :

لم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنا وسندا وتدوينا ، وضبطها بالمشافهة عن افواه العلماء الاثبات الفصحاء الابيناء من التابعين عن الصحابة عن رسول الله (ص) فهو النص العربى الصحيح المتواتر المجمـــع على تلاوته بالطـــرق التـــى وصل الينا بها فى الاداء والحركات والسكنات ، ولم تعتن أمة بنص كما اعتنـــى المسلمون بنص قرآنهم ·

فالقرآن لا شك هو النص الصحيح المجمع علـــى الاحتجاج به فى اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة ، اما الخلاف فقد وقع فى القراءات ·

---

(32) الاقتـــراح للسيـــوطى ص 14 ·
(33) الخصائص ج 2 ص 10 ·

فالكوفيون يعتبرونها مصدرا هاما من مصادر الدراسات اللغوية ، أما البصريون فقد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية واخضعوها لاصولهم واقيستهم ، فما وافق منها اصولهم ولو بالتاويل قبلوه ، وما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها.

أما المحدثون فقد ذهب أحد الاساتذة الى أنها غير متواترة ، بل القراءات بين ما هو اجتهاد من القارىء وبين ما هو منقول بخبر الواحد ، ولذلك فهى ليست بحجة (34) .

وذهب الاستاذ سعيد الافغانى الى أنها متواترة ويجيء القياس عليها بقوله : (وبعد فقراءات القرآن جميعها حجة فى العربية متواترها وآحادها وشاذها . واكبر عيب يوجه الى النحاة عدم استيعابهم اياها واضاعتهم على انفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتج بها ولو قعلوا لكانت قواعدهم اشد احكاما) (35).

وعلى الرغم من أن القراءات غير متواترة وانها اجتهاد من القراء انفسهم — كما يقول الخوئى فى كتابه البيان — الا أنها يمكن اعتبارها مصدرا من المصادر المهمة للوقوف على وجوه الاختلاف بين اللهجات العربية ، لان القراءات هى المصدر الصحيح الذى حفظ لنا اللغة العربية ممثلة فيها اللهجات لما عرف به القراء فى العصور المختلفة من دقة فى التلقى والتلقين ومن ضبط واتقان فى الرواية .

يؤيد هذا ما لاحظه ابن خالويه من أن كلا من الائمة القراء كان (يذهب فى اعراب ما انفرد به مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع قصد من القياس وجها لا يمنع) .

كأنه كان يريد القول بأن اختلاف القراءات ينبنى على ما بين اللهجات العربية التى قرىء بها القرآن من اختلاف ، وكأنه كان يرمى الى أن اللهجات على اختلافها حجة يصح الاستشهاد بها على أصل من اصول العربية والاستناد اليها فى بناء قاعدة من قواعدها) (36) .

ان اللغويين والنحاة انما بنوا قواعدهم على كلام العرب بجمع نتف نثرية وشعرية من هذه القبيلة ومن تلك ، من اعرابى فى الشمال الى امراة فى الجنوب ، ومن شعر لا يعرف قائله الى جملة غير منسوبة .. يجمعون هذا الى اقوال معروفة مشهورة ويضعون قواعد تصدق على اكثر ما وصل اليهم بهذا الناقص الذى لا يستند الى خطة محكمة فى الجمع ، ثم يسددون هذه القواعد بمقاييس منطقية يريدون اطرادها فى الكلام ، حتى اذا اتت بعضهم قراءة صحيحة السند تخالف قاعدته القياسية طعن فيها وان كان قارئها ابلغ واعرب من كثير ممن يحتج النحوى بكلامهم ، فلا استقراؤه كامل او كاف ، ولا لشواهده التى استند اليها بعض ما للقراءة الصحيحة من القوة ، ولا اللغة تخضع للمقاييس المنطقية التى ابتدعها ، وخير ما يصف اضطراب موقفهم هذا قول الرازى : (اذا جوزنا اثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز اثباتها بالقرآن العظيم اولى ، وكثيرا ما ترى النحويين متحيرين فى تقرير الالفاظ الواردة فى القرآن ، فاذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به وانا شديد التعجب منهم فانهم اذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلا على صحتها فلان يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان اولى) (37) وفى هذا المعنى قال ابن حزم فى الفصل : (من النحاة من ينتزع من المقدار الذى يقف عليه من كلام العرب حكما لفظيا ويتخذه مذهبا . ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فياخذ فى صرف الآية عن وجهها) .

وقال فى موضع آخر : (ولا عجب اعجب ممن ان وجد لامرىء القيس او لزهير او لجرير او الحطيئة او الطرماح او لاعرابى اسدى او ديلمى او تميمى

---

(34) البيان فى تفسير القرآن للخوئى ص 137 .
(35) فى اصول النحو ص 40 .
(36) مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو لمهدى المخزومى ص 347 .
(37) تفسير فخر الدين الرازى ج 3 ص 193 .

أو من سائر ابناء العرب لفظا من شعر او نثر جعله حجة يصرفه عن وجهه ويحرفه عن موضعه ويتحيل فى احالته عما اوقعه الله عليه) (38) ·

ومن امثلة هذا انهم قرروا ان المصدرية لا يجوز اعمالها وان نحو (تسمع بالمعيدى خير من ان تراه) يحفظ ولا يقاس عليه ، وقد جاء على نحو هذا المثل قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا » (39) ومقتضى ارتفاع منزلة القرآن فى الفصاحة واخذه باحسن طرق البيان، فانكر بعضهم القراءة وذهب بها آخرون مذهب التاويل والتقدير ، والحق ان نتلقى القراءة المتواترة بالقبول ولا نحمل الآية مالا تطيقه بلاغتها من التعسف فى التقدير ونبقيها على ظاهرها ولا نسلم ان الفصل فى هذا مخالف للفصاحة · وقد حاول بعضهم الاعتذار عمن يقولون فى الآية انها تاتى على وجه يخالف مذهبهم النحوى : هذا غير مقيس او موقوف على السماع فقال : ان النحاة لما استقرءوا كلام العرب وجدوه على قسمين : قسم اشتهر استعماله وكثرت نظائره فجعلوه قياسا مطردا ، وقسم لم يظهر لهم فيه وجه القياس لقلته وكثرة ما يخالفه فوصفوه بالشذود ووقفوه على السماع لا لانه غير فصيح بل لانهم علموا ان العرب لم تقصد بذلك القليل ان يقاس عليه ·

واذا سلموا ان ما جاءت عليه الآية مما يخالف مذهبهم عربى فصيح كان اعتذارهم بأن العرب لم تقصد ان يقاس عليه · وفى صحة القياس على ما ترد به الآيات الكريمة مخالفا لما اشتهر فى كلام العرب زيادة فى اساليب القول وفتح طرق يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته ·

ب ــ الحديث الشريف :

يراد بالحديث الشريف اقوال النبى (ص) واقوال الصحابة التى تروى افعاله او احواله او ما وقع فى زمنه وقد تشتمل كتب الحديث على اقوال التابعين ·

والذى جعل بعض اللغويين والنحويين يثبتون اقوال التابعين هؤلاء مع الرسول والصحابة ثقتهم بصحة صدورها عنهم فيحتجون بها فى اثبات مادة لغوية او دعم قاعدة نحوية او صرفية ·

وكان من الحق ان يتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر فى باب الاحتجاج فى اللغة والنحو اذ لا تعهد العربية فى تاريخها بعد القرآن الكريم بيانا ابلغ من الكلام النبوى ولا اروع تأثيرا ولا افعل فى النفس ولا اضح لفظا ولا اقوم معنى ، ولكن ذلك لم يقع كما ينبغى لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين الى ثقافة ما يزودهم به رواة الاشعار خاصة انصرافا استغرق جهودهم ، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلل كلها وارد بصورة اقوى على ما احتجوا له هم انفسهم من شعر ونثر ·

ومع اجماع اللغويين والنحاة عامة على ان النبى (ص) افصح العرب قاطبة وان الحديث لا يتقدمه شىء فى باب الاحتجاج اذا ثبت لهم انه لفظ النبى نفسه ، انقسموا فيما يروى من الاحاديث فريقين : فريقا غلب على ظنه انها لفظه (ص) فاجاز الاحتجاج بها ، وفريقا غلب على ظنه انها مروية بالمعنى لا باللفظ واذا لا يجيز الاحتجاج بها ·

ونحن عارضون بشىء من التفصيل للمذهبين ثم خاتمون برأى المتأخرين من الباحثين ·

اولا : مذهب المانعين :

وقد عبر عنه أبو الحسن بن الضائع (ــ 680 هـ) فى شرح الجمل وابو حيان الاندلسى (ــ 745 هـ) فى شرح التسهيل ، خير تعبير قال ابو الحسن فى شرح الجمل : (تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الائمة ــ كسيبويه وغيره ــ الاستشهاد على اثبات اللغة بالحديث واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الاولى فى اثبات فصيح اللغة كلام النبى (ص) لانه افصح العرب · قال : وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا فان كان على وجه

(38) ابن حزم فى الفصل نقلا عن كتاب فى اصول النحو لسعيد الافغانى .
(39) سورة الروم ص 30 ــ 24 ·

الاستظهار والتبرك بالمروى فحسن ، وان كان يرى ان من قبله اغفل شيئا وجب عليه استدراكه فليس كما رأى) (40) .

اما ابو حيان الاندلسى فقد ذكر فى شرح التسهيل فى صدد رده على ابن مالك صاحب التسهيل لاحتجاجه بالحديث قال : (قد اكثر المصنف فى الاستدلال بما وقع فى الاحاديث على اثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ، وما رايت احدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره ، على ان الواضعين الاولين لعلم النحو المستقرئين للاحكام من لسان العرب — كأبى عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه وائمة البصريين والكسائى والفراء وعلى بن المبارك الاحمر وهشام الضرير من ائمة الكوفيين — لم يفعلوا ذلك وتبعهم على ذلك المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الاقاليم كنحاة بغداد واهل الاندلس ، وقد جرى الكلام فى ذلك مع بعض المتأخرين الاذكياء قال : انما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول (ص) اذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم فى اثبات القواعد الكلية وانما كان ذلك لامرين :

احدهما : ان الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت فى زمانه (ص) فتنقل بالفاظ مختلفة كحديث (زوجتكها بما معك من القرآن) ، وفى رواية اخرى (ملكتكها بما معك من القرآن) وفى ثالثة (خذها بما معك من القرآن) وفى رابعة (امكناكها بما معك من القرآن) .

فنعلم يقينا انه (ص) لم يلفظ بجميع هذه الالفاظ بل لا نجزم بانه قال بعضها ، اذ يحتمل انه قال لفظا مرادفا لهذه الالفاظ ، فأتت الرواة بالمرادف ولم تات بلفظه ، اذ المعنى هو المطلوب ولا سيما مع تقادم السماع وعدم ضبطه بالكتابة ، والاتكال على الحفظ . والضابط منهم من ضبط المعنى واما ضبط اللفظ فبعيد جدا لا سيما فى الاحاديث الطوال .

ومن نظر فى الحديث ادنى نظر علم العلم اليقين انهم انما يروون المعنى .

ثانيهما : انه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ، لان كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون ذلك ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، ونعلم قطعا من غير شك ان رسول الله (ص) كان افصح الناس فلم يكن ليتكلم الا بأفصح اللغات واحسن التراكيب واشهرها واجزلها . واذا تكلم بلغة غير لغته فانما يتكلم بذلك مع اهل تلك اللغة على طريق الاعجاز) (41) .

ثانيا : مذهب المجيزين :

وقد عبر عنه من المتقدمين الامام ابن مالك (— 672 هـ) **تلميذ ابن حيان** ، والبدر الدمامينى فى شرح التسهيل فى صدد رده على ابى حيان وهو مذهب المتأخرين أمثال المرحوم الاستاذ طه الراوى والمرحوم الاستاذ محمد الخضر حسين والاستاذ الدكتور مهدى المخزومى وهو الاصل .

فابن مالك اكثر من الاستدلال بما وقع فى الاحاديث على اثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ولا سيما فى كتابه « التسهيل » اكثارا ضاق به ابو حيان شارح التسهيل غير مرة حتى غلا فى بعض هذه المرات فقال : (والمصنف قد اكثر من الاستدلال بما ورد فى الاثر متعقبا بزعمه على النحويين وما امعن النظر فى ذلك ولا صحب من له التمييز) (42) .

ثم جاء ابن هشام (— 761 هـ) تلميذ ابى حيان ونقيضه فى مذهبه ازاء الاستشهاد بالحديث ، يكثر من الاحتجاج به فى كتبه ما وجد الى ذلك سبيلا كغيره من النحاة حتى لفت نظر مترجميه ، فنصوا على انه كان كثير المخالفة لشيخه ابى حيان شديد الانحراف عنه) (43) .

---

(40) خزانة الادب ج 1 ص 23 — 24 .
(41) الاقتراح للسيوطى ص 19 — 21 نقلا عن خزانة الادب للبغدادى ص 24 .
(42) الاقتراح للسيوطى ص 19 وما بعدها .
(43) بغية الوعاة ص 293 او ص 69 .

وقد رد هؤلاء اعتراضات المانعين التى ذكرناها فى صدر الحديث فأما المانع الاول : وهو تجويز الرواية بالمعنى فيجيبون عليه بأن الاصل الرواية باللفظ ومعنى تجويز الرواية بالمعنى فى ان ذلك احتمال عقلى فحسب لا يقين بالوقوع ، وعلى فرض وقوعه ، فالمغير لفظا بلفظ فى معناه عربى مطبوع يحتج بكلامه فى اللغة ، ونحن نعرف مقدار تحرى علماء الحديث وضبطهم لالفاظه حتى اذا شك راو عربى بين (على وجوههم) و (على مناخرهم) اثبتوا شكه ودونوه مبالغة فى التحرى والدقة · هذا الى جانب ان كثيرا من الرواة صحابة وتابعين دونوا الحديث من عهد النبى (ص) ·

وهم يرون ان الذى فى مدونات الطبقة الاولى لفظ النبى نفسه ، فان كان هناك ابدال لفظ بمرادفه فانما ابدله عربى فصيح يحتج به · وان وقع بعد ذلك شك فى بعض الروايات من غلط او تصحيف فنزر يسير لا يقاس ابدا على امثاله فى الشعر وكلام العرب ، فكثير من الاشعار نفسها رويت بروايات مختلفة وبعضها موضوع وربما كان ما فطنوا الى وضعه منه اقل من القليل ، وجاز عليهم اكثر الموضوع اذا كان واضعه قد احسن المحاكاة ، قال الخليل بن احمد : (ان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيت) (44) واما المانع الثانى : وهو وقوع لحن فى بعض الاحاديث المروية فهو شىء — ان وقع — قليل جدا لا يبنى عليه حكم ، وقد تنبه اليه الناس وتحاموه ولم يحتج به احد ، ولا يصح ان يمنع من اجله الاحتجاج بهذا الفيض الزاخر من الحديث الصحيح ، الا ان جاز اسقاط الاحتجاج بالقرآن الكريم ، لان بعض الناس يلحن فيه · وانت تعرف الى هذا انهم قد تشددوا فى اخذ الناس بضبط الفاظ الحديث حتى اذا لحن فيه سادر او عامى اقاموا عليه النكير ، بل ان بعضهم ليدخله النار بسببه وكان هذا التشديد متوارثا فى حملة الحديث حتى يومنا هذا ، وهذا ما اثبته احد اعلام الشام وهو السيد جمال الدين القاسمى (— 1332 هـ) : (من قرأ حديث رسول الله (ص) وهو يعلم انه يلحن فيه سواء أكان فى ادائه أم فى اعرابه يدخل فى هذا الوعيد الشديد (يعنى قوله (ص) : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) لانه بلحنه كاذب عليه) (45) ·

الى هنا ننتهى من قول المتقدمين المجيزين وردودهم على المانعين فلننظر فيما يقوله المتأخرون فى هذا المجال·

ثالثا : رأى المتأخريـــن :

ذهب المرحوم الاستاذ طه الراوى الى الاحتجاج بما صح منها دون قيد او شرط · ويعرض للذين اعترضوا بوجود اعاجم فى رواة بعض الاحاديث فيقول : (والقول بأن فى رواة الحديث اعاجم ليس بشىء ، لان ذلك يقال فى رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما ، فان فيهم الكثير من الاعاجم ، وهل فى وسعهم ان يذكروا لنا محدثا ممن يعتد به يمكن أن يوضع فى صف حماد الراوية الذى كان يكذب ويلحن ويكسر) ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمروياته ولكنهم تحرجوا فى الاحتجاج بالحديث — ثم لا ادرى لم ترفع النحويون عما ارتضاه اللغويون من الانتفاع بهذا الشأن والاستقاء من ينبوعه الفياض بالعذب الزلال ، فأصبحت اللغة به خصيبة بقدر ما صار ربع النحو منه جديبا :

وكان حالهما فى الحكم واحدة
لو احتكمنا من الدنيا الى حكم (46)

اما المرحوم الاستاذ محمد الخضر حسين فقد عالج الموضوع فى مجلة مجمع اللغة العربية على خير ما يعالجه عالم ثبت مترو وقاض منصف فقال : ونجد الاحتجاج بالحديث ماثلا معاجم اللغة ، فنظرة الى معاجم التهذيب للازهرى والصحاح للجوهرى والمخصص لابن سيده والمجمل ومقاييس اللغة لابن فارس والفائق للزمخشرى كافية لدحض ما ادعى أبو حيان بل قد عد ابن الطيب من اصحاب هذا المذهب من النحاة : ابن فارس وابن خروف وابى جنى وابن برى والسهيلى

---

(44) الصاحبى فى فقه اللغة ص 30 ·
(45) قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ص 156 ·
(46) نظرة فى النحو (مجلة المجمع العلمى بدمشق) ج 2 ص 325 — 327 ·

بل انه قال : لا نعلم احدا من علماء العربية خالف فى هذه المسالة الا ما ابداه الشيخ ابو حيان فى شرح التسهيل وابو الحسن الضائع فى شرح الجمل وتابعهما على ذلك السيوطى (47) ·

وقد انتهى الاستاذ من بحثه الى النتيجة الآتية :

(من الاحاديث ما لا ينبغى أن يكون موضع خلاف بين الفريقين اربعة انواع من الاحاديث) ·

اولها : ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته وبلوغه ما يمكن لبشر ان يبلغه من حكمة البيان ، فان المعروف فى رواة الحديث بهذا القصد ان يحافظوا على الفاظ الحديث نفسها كقوله (ص) : (حمى الوطيس) اى اشتد الضراب فى الحرب وقوله (مات حتف انفه) اى مات على فراشه وقوله (ص) (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا) ·

ثانيها : ما يروى للاستدلال على انه (ص) كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم ككتابه الى همدان وكلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفه الهندى وغيرهما ·

ثالثها : ما يروى لبيان اقوال كان يتعبد بها او اقر بالتعبد بها كالفاظ القنوت والتحيات وكثير من الادعية التى يدعو بها فى اوقات خاصة ·

رابعها : الاحاديث التى وردت من طرق متعددة واتحدت الفاظها فاتحاد الالفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا فى الفاظها ، فان انفرد بروايته صحابى وتعددت طرق روايته عن الصحابى صح الاستشهاد به ايضا ، اذ تصرف الصحابى فى الحديث على تقدير تصرفه فيه لا يمنع من الاستشهاد به ، لان الفاظ الصحابة مما يحتج به فى العربية ·

ومجمل القول ان الاحاديث التى تتعدد طرقها ويتحد لفظها تصلح للاستشهاد متى كانت تلك الطرق المتعددة متصلة براو يحتج بعبارته فى الاحكام اللغوية (48) ·

اما الدكتور مهدى المخزومى فهو يرى أن اللغويين والنحاة الاولين اخطأوا حينما ابعدوا جانبا مهما من المصادر اللغوية وهو الحديث لانهم زعموا أن كثيرا من رواته كانوا من الموالى وهم عرب بالتعلم لا بالسليقة والطبع ولا يؤمن على الحديث أن يقع فيه لحن أو تصحيف ·

مع انهم لو انصفوا لعدلوا عما ذهبوا اليه لانهم كانوا يعلمون مدى حرص المحدثين على سلامة الاحاديث ، ومدى ما قاموا به فى سبيل المحافظة عليها، وكان المحدثون ولا سيما المتاخرين منهم من الدقة بحيث يستبعد عن صنيعهم كثير من الشكوك التى اقامها النحاة عقبات فى طريق الاستشهاد بها والاخذ منها · وقد ذكرنا انهم كانوا لا يتورعون من الاستشهاد بكلام ناس من الموالى امثال الحسن البصرى وابى على عمرو بن فائد الاسوارى وغيرهما · يضاف الى ذلك انهم لو سمعوا سيبويه يروى نصا لما ترددوا فى الاخذ به ، لان سيبويه ثقة ، وهو انما يروى نصا لغويا لا علاقة له بحكم من احكام الدين فما بالك بقوم كانوا يحرصون اشد الحرص على سلامة الاحاديث فى متن ، وقد ايد ما ذهب اليه ابن مالك بقوله : ولا يسع الدارس الا الاطمئنان الى سلامة ما ذهب اليه ابن مالك ومن شايعه فى اعتبار الاحاديث من المصادر التى يعتمد اللغوى والنحوى والنحوى عليها ·

على ان بعض النحاة قد وقف بين الفريقين بين المانع مطلقا وهم النحاة الاولون والفريق المثبت مطلقا وهم ابن مالك وابو حيان ومن تابعهما موقفا وسطا بالحديث فجوزوا الاحتجاج بالاحاديث التى اعتنى بنقل الفاظها ·

وشايعه السيوطى فقال : (واما كلامه (ص) فيستدل منه بما ثبت انه قاله على اللفظ المروى وذلك نادر جدا ، انما يوجد فى الاحاديث القصار) ·

وبعد هذا ذكر الاستاذ ان الادباء ورواة اللغة كانوا قد انتبهوا الى كذب بعض الرواة فنصوا على الموثوق به منهم وغير الموثوق به متاثرين فى ذلك باصحاب الاحاديث ، فكان ينبغى على علماء العربية ان ينصفوا رواة الحديث من زاوية اعمالهم وتخصصهم

---

(47) مجلة مجمع اللغة العربية ج 3 ص 199 بحث (الاستشهاد بالحديث) للاستاذ محمد الخضر حسين ·
(48) دراسات فى العربية وتاريخها ص 35 ·

فينصوا على من صحت ملكته منهم فيقبلوا روايته وينصوا على من لم تصلح ملكته فيرفضوا روايته .

انهم لو فعلوا ذلك لوجدوا انفسهم أمام طائفة كبيرة من النصوص تصلح أن تكون من المصادر التى يرجعون اليها فى تدوين أحكامهم ويسلم لهم المنهج لاستكمال شرائطه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ومضوا فى شأنهم سادرين (49) .

ونحن نؤيد الاحتجاج النبوى ولكن لا مطلقا كما ذهب الى ذلك بعض الباحثين وانما على وفق قرار المجمع وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعض الاحاديث فى أحوال خاصة مبينة فيما يأتى :

1 — لا يحتج فى العربية بحديث لا يوجد فى الكتب المدونة فى الصدر الاول كالكتب الصحاح الست فما قبلها .

2 — يحتج بالحديث المدون فى هذه الكتب الآنفة الذكر على الوجه الآتى :

أ — الاحاديث المتواترة والمشهورة .

ب — الاحاديث التى تستعمل الفاظها فى العبادات

ج — الاحاديث التى تعد من جوامع الكلم .

د — كتب النبى (ص) .

هـ — الاحاديث المروية لبيان انه (ص) يخاطب كل قوم بلغتهم .

و — الاحاديث التى دونها من نشأ بين العرب الفصحاء .

ز — الاحاديث التى عرف من حال رواتها انهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم بن محمد ورجاء بن حيوه وابن سيرين .

ح — الاحاديث المروية من طرق متعددة والفاظها واحدة (50) .

ج — كلام العرب :

يحتج بالكلام العربى لغرضين : غرض لفظى يدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف ، وغرض معنوى لا علاقة له باللفظ ، وقد بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من اهل المدر والوبر قدماء ومحدثين . وتقصوا أحوالهم ونقدوها ، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته وقد صنفوا بحسب الزمان والمكان والاحوال .

فأما الزمان — وهو الذى يدخل فى صميم بحثنا — فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثانى سواء أسكنوا الحضر أم البادية .

أما الشعراء فقد قسموا على طبقات اربع : الطبقة الاولى ، الشعراء الجاهليون كامرىء القيس والاعشى وغيرهما ، الطبقة الثانية ، المخضرمون وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام كلبيد وحسان ، الطبقة الثالثة ، المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون وهم الذين كانوا فى صدر الاسلام كجرير والفرزدق ، الطبقة الرابعة ، المولدون ويقال لهم المحدثون وهم من بعدهم الى زماننا كبشار بن برد وابى نواس .

فالطبقتان الاولى والثانية يستشهد بشعرهما اجماعا ، أما الطبقة الثالثة فقد اختلفوا فيا ، وذهب عبد القادر البغدادى صاحب خزانة الادب الى جواز الاستشهاد بها (51) .

أما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بشىء من اشعارها فى أحكام اللسان وكان بشار قد هجا الاخفش فأورد الاخفش فى كتبه شيئا من شعره ليكف عنه (52) وكذلك سيبويه استشهد بشىء من شعر بشار تقربا اليه لانه كان قد هجاه لتركه الاحتجاج بشعره (53) واستشهد ابو على الفارسى فى كتاب الايضاح ببيت ابى تمام :

---

(49) مدرسة الكوفة لمهدى المخزومى ص 61 .
(50) مجلة مجمع اللغة العربية ج 4 ص 7 قرار الاحتجاج بالحديث الشريف .
(51) خزانة الادب ص 20 .
(52) كتاب الوشح للمرزبانى نقلا عن كتاب دراسات فى العربية وتاريخها .
(53) خزانة الادب ص 22 .

من كان مرعى عزمه وهمـــومـــه
روض الامانـــى لم يـــزل مهـــزولا .

ولم يكن ذلك من شانه لان عضد الدولة كان يحب هذا البيت وينشده كثيرا (54) ·

وذهب بعض علماء العربية الى صحة الاستشهاد بكلام من يوثق به من المحدثين واختـــاره الـــزمخشرى وتبعه الشارح المحقق ، فانه استشهد بشعر ابى تمام فى عدة مواضع من هذا الشرح واستشهد الزمخشرى ايضا فى تفسير اوائل البقرة من الكشاف ببيت مـــن شعره وقال : (وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فاجعـــل ما يقـــولـــه بمنزلة ما يرويه ، الا ترى الى قول العلماء : الدليـــل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايتـــه واتقانه) ونحا هذا النحو العلامة الرضى فقد استشهد بشعر ابى تمام فى عدة مواضع من شرحه لكافية ابن الحاجب ، وجرى على هذا المذهب الشهاب الخفاجى فقال فى شرحه لدرة الغواص : « اجعل ما يقوله المتنبى بمنزلة ما يرويه » · واعترض على هذا المذهب ، بان قبول الرواية مبنى على الضبط والوثوق واعتبار القول مبنيا على معرفة اوضاع اللغة العربيـــة والاحاطـــة بقوانينها (55) · وكيف يحتج باقوال هؤلاء المولديـــن وقد وقعوا فى اغلاط كثيرة لا يستطيع احد تخريجهـــا على وجه مقبول فهذا ابو تمام يقول :

لعـــذلتـــه فى دمنتيـــن تقـــادمـــا
ممحـــوتيـــن لـــزينـــب وسعـــاد

والصواب « تقادمتا » · وهذا المتنبى يقول :

فان يك بعض الناس سيفا لدولـــة
ففى النـــاس بوقات لهـــا وطبول

والصواب فى جمع بوق بوق او ابواق (56) ·

ويحتج بالبيت الذى لا يعرف قائله متـــى رواه عربى ينطق بالعربية بمقتضى السليقة · وكان العرب ينشد بعضهم شعره للآخر · فيرويه عنه كما سمعه ، او يتصرف فيه على مقتضى لغته · ولهذا تكثر الروايات فى بعض الابيات ويكون كل منها صالحا للاحتجـــاج ، كما يحتج بالشعر الذى يرويه من يوثق به فى اللغة واشتهر بالضبط والاتقان وان لم يعرف قائله وقـــد تلقى علماء العربية شواهد كتابسيبويه بالقبول وفيها نحو من خمسين شاهدا لم تعرفاسماء قائليها ، فانما يكون الرد وجيها اذا روى الشعر من لم يكن عربيا فصيحا ولم يشتهر بالضبط والاتقان فيما يسوقه من الشعر على انه عربى فصيح ·

واما المكان او بعبارة اخرى القبائل فقد اختلفت درجاتها فى الاحتجاج على اختلاف قربها او بعدها من الاختلاط بالامم المجاورة فاعتمدوا كلام القبائل فى قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التى على السواحل او فى جوار الاعاجم ، وهذا تصنيف ابى نصر الفارابى لهم فى الاحتجاج :

« كانت قريش اجود العرب انتقاءا للافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق واحسنهـــا مسموعا وابينها عما فى النفس · والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم اخذ اللسان العربـــى من بين قبائل العرب هم : ـــ قيس وتميم واسد فان هؤلاء هم الذين اخذ عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ·

ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ·

وبالجملة لم يؤخذ عن حضرى ولا عـــن سكان البرارى ممن كان يسكن اطراف بلادهم التى تجـــاور سائر الامم الذين حولهم ولم يؤخذ من لخم ولا مـــن جذام فانهم كانوا مجاورين لاهل مصر والقبط ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من اياد فانهم كانوا مجاورين لاهل الشام واكثرهم نصارى يقرؤون صلاتهم بغيـــر العربية · ولا من تغلب ولا النمر فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من عبد القيس لانهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ·

---

(54) وفيات الاعيان ـــ تاريخ ابن خلكان ج 1 ص 362 ·
(55) خزانة الادب ص 21 ·
(56) دراسات فى العربية وتاريخها ص 37 ·

ولا من ازد عمان لمخالطتهم للهند والفرس ·

ولا من اهل اليمن اصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة فيهم · ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الامم المقيمين عندهم · ولا من حاضرة الحجاز لان الذين نقلوا اللغة مادنوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم » (57) ·

واما احوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخبرها ما كان اعمق فى التبدى والصق بعيشة البادية ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين اخذهم عن الاعراب اهل الشيح والقيصوم وحرشة الضباب واكلة اليرابيع ويقولون للكوفيين : « اخذتم عن اكلة الشوارين وباعة الكواميخ » ، وقد نص الفارابى بعد قوله المتقدم آنفا على صناعة هؤلاء العرب وصفاتهم فقال : « كانت صنائع هؤلاء التى بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية وكانوا اقواهم نفوسا واقساهم قلوبا واشدهم توحشا وامنعهم جانبا واشدهم حمية واحبهم لان يغلبوا ولا يغلبوا واعسرهم انقيادا للملوك واجفاهم اخلاقا واقلهم احتمالا للضيم والذلة » (58) ·

د ــ القياس على الشاذ :

للحكم الذى ورد به السماع النادر اربعة انواع :

الاول : ان يرد لفظ معين على وجه لم يرد السماع بخلافه لا فى اللفظ عينه ولا فيما كان من نوعه ·

وهنا انقسم النحاة واللغويون فيما بينهم فى القياس عليه فسيبويه يكتفى بهذا اللفظ الواحد ويتخذه اصلا يقيس عليه كل ما كان من نوعه · ومثال هذا شنأى فى النسبة الى شنوءة ، فقد اكتفى بهذا الشاهد وجعل وزن فعلى قياسا فى كل ما كان على صيغة فعولة مع انه لم يقع اليه من شواهده الا هذه الكلمة المفردة ·

وذهب الاخفش بكلمة شنأى مذهب الشاذ الذى لا يقوم عليه قياس واخذ بالاصل الاول للنسب وهو ابقاء الكلمة على حالها فيقال فى النسبة الى فروتة فروتى ، ويتأيد السماع الذى عول عليه سيبويه بقياس فعولة على فعيلة ، فان قياس النسبة الى فعيلة فعلى نحو حنيفة وصحيفة وبجيلة ، فيقال فى النسبة اليها حنفى وصحفى وبجلى ·

الثانى : ان يرد لفظ معين على وجه يخالف القياس والسماع ، وهذا الوجه المخالف للقياس والسماع لا يقام له فى نظر الجمهور وزن ولا يجيزون لاحد النسج على مثاله ، الا ان الاخفش حاد عن هذا السبيل حيث سمع تولهم هداوى فى جمع هدية فجعله مقيسا فى كل ما كان لامه ياءا ، وهذه الكلمة شاذة فى السماع والقياس اذ المسموع والموافق للقياس فى مثل هذا ابقاء الياء بحالها · فيقال فى جمع هدية وعطية ومزية ، هدايا وعطايا ومزايا · ومن هذا القبيل ان القياس فى اسم المفعول المأخوذ من الفعل الثلاثى المعتل العين بالواو وحذف احد الواوين ، فيقال فى اسم المفعول من رام مروم وورد فى الفاظ معدودة النطق بالواوين كليهما فقال بعض العرب : ثوب مصون ومسك مدووف وفرس مقوود · ومثل هذه الكلمات الشاذة تحفظ عند الجمهور ولا يصح لاحد ان يقيس عليها · وخالفهم فى هذا المبرد والحقها بقبيل ما يقاس عليه ·

الثالث : كلمات معدودة تاتى على وجه مخالف للقياس ، ويكثر استعمالها على الوجه المخالف حتى يقل او يفقد استعمالها على وجه القياس مثل استحوذ واستصوب ، فقد ورد على خلاف القاعدة القاضية بقلب واوهما الفا كما يقال استقام واستعار واستنار · ومثل عييد تصغير عيد ، ومقتضى القاعدة فى القياس عويد لانه مثل عاد يعود والتصغير كالجمع يرد الاسماء الى اصولها ومن هذا النوع ما يرد على الوجه الموافق للقياس ايضا نحو استحوذ واستصوب، فقد ثبت عن العرب انهم قالوا : استحاذ واستصاب ، فيجوز ذلك العمل فيه على الوجهين بيد ان الوجه الاكثر فى السماع هو الارجح فى الاستعمال لانه مألوف عند المخاطبين اكثر من الوجه الذى قل فى السماع وان كان ارجح من جهة القياس ·

اما الالفاظ التى لم ترد الا على الوجه المخالف للقياس نحو عييد فيقتصر فيها على ما ورد عن العرب

(57) كتاب الفارابى (الالفاظ والحروف) نقلا عن الاقتراح للسيوطى ص 22 ·
(58) الاقتراح للسيوطى ص 22 ·

الا أن يبدو لنا أن تتعلق بمذهب من يجيز اجراء الالفاظ على مقتضى القياس زيادة على الوجه الثابت من طريق السماع ·

الرابع : أن ترد الفاظ معينة على ما يوافق القياس ويخالف السماع ومثال هذا أن المعروف فى خبر عسى كونه مضارعا مقرونا بأن أو مجردا منها وورد اسما صريحا فى امثلة معدودة فقالوا : فى مثل (عسى الغوير ابؤسا) وقول الشاعر :

اكثرت فى العذل ملحا دائما

لا تكثرن انى عسيت صائما (59)

ومجمل القول أن النحاة اختلفوا فى الوارد على وجه الشذوذ من حيث الاعتداد به فى القياس · وفى شرح الفصيح لابن خالويه جاء قوله : « كان الاصمعى يقول افصح اللغات ويلغى ما سواها · وابو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحدا » ·

وممن أنكر القياس على الشاذ ابن السراج فقال: (ولو اعترض بالشاذ على القياس المطرد لبطل اكثر الصناعات والعلوم ، فمتى سمعت حرفا مخالفا لا شك فى خلافه لهذه الاصول فاعلم انه شاذ ، فان كان سمع ممن ترضى عربيته ، فلا بد أن يكون قد حاول به مذهبا او نحا نحوا من الوجوه واستهواه امر غلط) (60) ·

ثم ان الكوفيين يعتدون بما ورد من الكلمات الشاذة ويعملون بالقياس عليها ، والبصريون يمنعون من القياس على الشاذ ويذهبون فى مثله الى ان قائله نحا به نحوا خلاف ما يظهر منه ويردونه الى الاصل المعروف عندهم على طريق من التاويل (61) · وابن مالك لا يكلف نفسه تاويل الشاذ ولا يذهب فيه مذهب الكوفيين من اباحة القياس عليه بل يصفه بالشذوذ او يجعله من قبيل ما دفعت اليه الضرورة (62) ومن امثلة هذا انهم ذكروا فى شرط صيغة افعل التفضيل ان لا يكون اصل الوصف على وزن افعل نحو ابيض واسود ، ولما جاءهم قول الشاعر :

جارية فى درعها الفضفاض

أبيض من أخت بنى اباض

انزله الكوفيون منزلة المقيس عليه وتاوله البصريون على انه قولهم (باض فلانا) اذا غلبه وفاته فى البياض · وابقاه ابى خالويه على ظاهره وطرحه الى المسموعات الشاذة ·

ومن الاقوال الشاذة مالا تجد للتاويل فيه مساغا ومن امثلته ان البصريين يمنعون أن تجمع الصيغة التى لا تقبل تاء التانيث جمع مذكر سالما نحو اسود واحمر · واجازه الكوفيون تمسكا بقول الشاعر :

فما وجدت نساء بنى تميم

حلائل اسودين واحمرين (63)

ولا يتخلص البصريون من هذا الشاهد الا بطرحه الى النادر الذى لا يقوم عليه قياس · والتاويل انما يقتحمه البصريون اذا كان اللفظ المخالف للمعروف فى اللسان واردا عن الفرد ونحوه ممن يتكلم باللغة المالوفة واما اذا ثبت انه لغة قبيلة فلا وجه لتاويله والخروج به عن ظاهره ولهذا ابطل ابن هشام تاويل ابى على الفارسى وابى نزار لقولهما (ليس الطيب الا المسك) برفع المسك ، لان ابا عمرو بن العلاء اثبت أن رفع خبر ليس الواقع بعد الا لغة تميم (64)·

والحق فيما يظهر ان ما يجيء على غير القياس قسمان :

احدهما : ان يكون كلام العرب سائرا على سنة معروفةووضع عام فتسمع الكلمة او نحوها ممن لا يعرف بالفصاحة وهى تخالف المعروف فى مجارى الكلام فهذه لا تصلح ان تكون موضعا للقياس بل الكلمة او

---

(59) شرح ابن عقيل ج 1 ص 324 ·
(60) دراسات فى العربية وتاريخها ص 42 ·
(61) الانصاف فى مسائل الخلاف ج 1 ص 148 ·
(62) شرح ابن عقيل ج 2 ص 173 ·
(63) الانصاف فى مسائل الخلاف ج 1 ص 40 ·
(64) مغنى اللبيب ج 1 ص 294 ·

الكلمتان لا تقومان فى وجه القاعدة التى يجرى عليها الفصحاء فى عامة مخاطباتهم ، ولو نقلت عن فصيح عربى اذ يجوز ان تكون قد صدرت منه على وجه الغلط او القصد الى تحريف اللغة . فان السنة الفصحاء قد تقع فى زلة الخطأ وتطوع لهم متى قصدوا الى تغيير الكلمة عن وصفها المعروف لهزل ونحوه .

وقد جرت عادة النحاة ان يصفوا خروج العربى الفصيح عن القاعدة بالشذوذ ولا يبالون ان يسموا خروج المولد عنها بالخطأ واللحن . وقد يصفون خروج العربى عن الاصول بالغلط بناءا على ان العربى يستطيع ان يلحن اذا تعمد اللحن كما انه يستطيع ان يتكلم بغير لغته اذا تعمد ذلك . يذكر النحاة فى شروط عمل ما عمل ليس فى لغة اهل الحجاز مراعاة الترتيب بحيث لا يتقدم خبرها على اسمها فورد قول الفرزدق :

« اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر »

فقدم خبر ما على اسمها . فقالوا : قول الفرزدق هذا شاذ او غلط اى لحن لان الفرزدق تميمى واراد ان يتكلم بلغة اهل الحجاز (65) . ولم يدر ان من شرط نصبها للخبر الترتيب بين اسمها وخبرها ، وقولهم ان العربى لا يقدر ان ينطق بغير لغته محمول على تكلمه وهو على حال سليقته ، واما عند تعمده النطق بالخطأ او بغير لغته ، فذلك ميسور له من غير شبهة .

ثانيهما : ما يرد فى الكلام الفصيح ، ونتحقق انه لم يصدر عن خطأ او تلاعب فى اوضاع اللغة مثل آيات الكتاب الكريم والاحاديث التى قامت القرائن على انها مروية بالفاظها العربية الصحيحة ، وهذا ان كان كلمة خرجت عما نسميه قياسا نحو معائش بالهمز فى احدى القراءات الصحيحة ، صح لنا ان نعطيها حكم استحوذ واستصوب فنتكلم بها ثقة بانها كلمة لا شبهة فى معناها ولكنا نرجع بأمثالها الى حكم القياس وهو أن مفاعل لا تقلب الياء فيه همزا متى كانت الياء عينا فى بناء مفردة ، فان كان راجعا الى النظم خالفناهم فى دعوى خروجه عن القياس وصح لنا ان نعده فيما يقاس عليه وننسج على منواله ان اباه البصريون والكوفيون فلا نبالى أن نقدم معمول المصدر على المصدر متى كان المعمول ظرفا او جارا ومجرورا وان منعه جماعة من النحاة ، فلو قال احد : رزق فلان على خصمه الفوز أن قال يعجبنى امام السلطان تكلمك بالحق . لقضينا لقوله بالفصاحة اذ له اسوة بقوله تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » النور 24 — 2 وقوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى » الصافات 37 — 102 ولا نبالى تقديم معمول صلة ال على ال متى كان المعمول ظرفا او جارا ومجرورا وان منعه كثير من النحاة ، فلو قال احد : انى لزيد من المحبين ، لتلقينا قوله بالقبول اذ لم يزد على ان اقتدى بقوله تعالى « وكانوا فيه من الزاهدين » يوسف 12 — 20 وقوله تعالى « وانا له لناصحون » (66) يوسف 12 — 11 .

هـ — القياس على ما لا بد من تاويله بخلاف الظاهر :

قد يرد فى كلام العرب ضرب من الكلام على وجه شائع لا يستقيم المعنى الا بتخريجه على خلاف ظاهره ، ومقتضى مذهب سيبويه والجمهور المنع من القياس عليه وان كان وجه تأويله مما يسمه القياس . ومما يساق شاهدا على هذا قولهم فى المصدر الذى كثر مجيئه حالا انه مقصور على السماع مع انهم يأولون المصدر باسم الفاعل او يقدرون معه مضافا يصلح ان يكون حالا فيكون المراد من المصدر (نحو بغتة فى قولهم : طلع زيد بغتة) اسم الفاعل او يحمل على انه فى التقدير ذا بغتة (67) واطلاق المصدر مرادا منه اسم الفاعل وحذف المضاف شائعان فى الاستعمال بحيث لا يقفان عند حد السماع .

وذهب بعضهم الى انه من باب ما يقاس عليه . وهذا المذهب بالنظر الى ما يحتمله التركيب من الوجوه المقبولة فى القياس مذهب وجيه ويشد أزره ان علماء البلاغة استحسنوا حمل المصدر على الذات عند قصد المبالغة نحو : زيد عدل او رضا . وهذه المبالغة قد تقصد عند ايراده مورد الحالية .

(65) شرح ابن عقيل ج 1 ص 305 هامش .
(66) دراسات فى العربية وتاريخها ص 44 .
(67) شرح ابن عقيل ج 1 ص 534 .

ومن هذا الباب قولهم : ان اسم الزمان لا يخبر به عن اسم الذات وجاءوا الى نحو قولهم (الليلة الهلال) وأولوه بتقدير اسم معنى وهو فى هذا الشاهد لفظ طلوع مضافا الى الهلال (68) ·

والحق فيما يظهر أن المنع من القياس فى مثل هذا مقيد بما اذا لم يقصد المتكلم الى تأويل قريب ووجه مقيس ، أما اذا نوى فى الكلام اسم معنى يضيفه الى المبتدأ فيستقيم به المراد ، فانه يلتحق بسائر الجمل التى يحذف فيها المضاف لقرينة تشير اليه ·

ولا بأس هنا ان نسوق بعض الامثلة بهذه المناسبة التى عدها بعض الادباء خطأ وهو محتمل لوجه من وجوه القياس الصحيح ·

انكر الحريرى قولهم :(هو قرابتى) وليس هذا بمنكر من القول متى عرف المتكلم ان القرابة مصدر ، وعمد الى اطلاقه على الموصوف به على ضرب من المجاز أو التقدير ·

وحكم صاحب المصباح على قولهم (اذن العصر) بالخطأ ، والصواب اذن بالعصر مع ان اسناد الفعل الى المفعول به ولو بوسيلة حرف الجر غير عزيز وانما يحكم عليه بالخطأ اذا صدر ممن لا يدرى وجوه تصاريف الكلام العربى بفطرته أو بتلقينه ·

ويشاكل هذا قول ابن قتيبة فى ادب الكاتب : (الملة يذهب الناس الى انها الخبزة فيقولون : اطعمنا ملة ، وذلك غلط ، انما الملة موضع الخبزة) (69) ·

قال ابن السيد فى شرحه : (وليس يمتنع عندى ان تسمى الخبزة ملة لانها تطبخ فى الملة كما يسمى الشىء باسم الشىء اذا كان منه بسبب ، او يخرج على حذف المضاف الى خبز الملة) (70) ·

والصواب ما عرفناه من أن التخطئة والتصويب فى مثل هذا يرجع فيهما الى حال المخاطب ، اذ الذى يطلق الملة على نفس الرغيف ، ويظهر لنا من قرينة حاله أو صريح مقاله انه اطلقها على اعتقاد انها موضوعة للرغيف بوضع حقيقى لا يخلص من سهام التخطئة ولو احتملت عبارته وجها من وجوه القياس الصحيح ·

ومن هذا القبيل حكم ابن قتيبة ايضا على قول العامة « تجوع الحرة ولا تأكل ثديها » بانه خطأ وقال : الصواب بثديها فقال ابن السيد فى شرحه : أما ما يذهب اليه العامة من ان المعنى لا تأكل لحم ثديها فهو خطأ · ولكن يجوز على التأويل بحذف المضاف الى اجر أو ثمن ثديها (71) · او على المبالغة بجعل اكلها لاجر ثديها بمكان اكل الثديين نفسهما ·

والتفصيل الذى سبق آنفا من النظر فى مثل هذا الى حال المتكلم يجرى هنا لولا أن العبارة مثل والامثال لا تغير ، فمن قصد بها ضرب المثل فقد اخطأ من جهة تحريف المثل وان كانت العبارة التى ينطق بها العامة فى نفسها صحيحة متى صدرت ممن يلاحظ المضاف المحذوف او يقصد الى ذلك من المبالغة (72)·

و ــ القياس فى صيغ الكلم واشتقاقها :

وخصصنا النظر على القياس فى المصادر

المصدر بأنواعه الثلاثة الاصلى والميمى والصناعى يدل على المعنى المجرد « وهو المعنى العقلى المحض الذى لا وجود له فى غير الذهن » فلا يدل ــ بذاته ــ على ذات ولا على زمن ولا افراد ولا تثنية ولا جمع ولا تانيث ولا تذكير ولا علمية ، ولا شىء اكثر من ذلك المعنى المجرد والمعانى المجردة كثيرة لا تكاد تحصر والحاجة الى استعمالها شديدة ومن العسير على غير العرب الاوائل معرفة المصدر الصحيح للفعل والاهتداء اليه بين المصادر الكثيرة المتنوعة ·

---

(68) شرح ابن عقيل ج 1 ص 185 ·
(69) ادب الكاتب ص 32 ·
(70) الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب ص 116 ·
(71) نفس المصدر السابق ص 221 ·
(72) دراسات فى العربية وتاريخها ص 48 ·

فلوضع ضوابط للكشف عنه والاهتداء اليه فى يسر وسهولة وتوفيق عكف اللغويون والنحويون منذ عصور بعيدة على الكلام العربى المأثور وعرضوا للمصادر الواردة بأكثره ودرسوها دراسة وافية من نواحيها المختلفة وبذلوا فيها الجهد كعادتهم مصممين أن يصلوا من وراء هذه الدراسة الصادقة المضنية الى تجميع المصادر واستخلاص ظواهرها وخواصها ثم تصنيفها أصنافا متماثلة ، لكل صنف أوصافه وخصائصه التى ينفرد بها وتشترك فيها افراده واحدا واحدا دون غيرها بحيث يصح أن ينطبق على كل صنف عنوان خاص به تندرج تحته أفراده ولا يشاركها فيه أفراد صنف آخر له ء وانه الخاص وله أوصافه وخصائصه التى تغاير ذاك كما هو الشأن فى كل القواعد والضوابط العلمية.

وقد نجحوا فيما أرادوا فجمعوا المصادر جمعا حميدا قدر استطاعتهم الجبارة ثم صنفوها ونوعوها وجعلوا لكل صنف ونوع قواعد وضوابط دقيقة تضم تحتها أفراده الكثيرة المبعثرة وتنطبق عليها وعلى نظائرها مما نطق به العرب وما ستنطق به أجيال قادمة لا عداد لها . والعارف بتلك الضوابط والقواعد يستطيع أن يهتدى الى المصدر الذى يريده فى سرعة وتوفيق (73) .

وانقسمت المصادر بعد هذا ثلاثة اقسام :

أحدها : مالا شبهة فى صحة القياس عليه نحو فعلله مصدرا للفعل الرباعى المجرد كدحرج وعربد ، ونحو افعال مصدرا للفعل الرباعى المزيد كأكرم ونحو تفعيل مصدرا للفعل المضعف كعلم ونحو مفاعلة مصدرا للفعل الرباعى أيضا كخاصم ونحو افتعال مصدرا للفعل الخماسى كاكتسب ونحو تفعل مصدرا لما جاء على تفعل كتكلم .

ثانيها : ما لا يختلف فى قصره على السماع لقلة ما ورد منه فى الكلام كالمصدر الوارد على فعال نحو كذب كذابا أو الوارد على فعيلى نحو الحثيثى للمبالغة فى الحث . او ما جاء على فعلى نحو جمزى ، وقد طعن الاخفش على بشار فى قوله :

والآن اقصر عن سمية باطلى
واشار بالوجلى على مشير

وقوله :

على الغزلى منى السلام فربما
لهوت بها فى ظل مخضلة زهر

وقال : لم يسمع من الوجل والغزل فعلى وانما قاسهما بشار وليس هذا مما يقاس انما يعمل فيه بالسماع .

ثالثها : ما جرى الخلاف فى جواز القياس عليه كطائفة من مصادر الفعل الثلاثى نحو فعل مصدرا للفعل المتعدى كشرب وفهم ونصر ونحو فعل مصدرا للفعل اللازم كفرح ونحو فعول مصدرا لفعل اللازم كقعد وغدا (74) . وسبب الخلاف فى القياس أن جمهور النحاة وجدوا لكل واحد من صيغ هذه المصادر أمثلة كثيرة تجرى عليه بنظام فذهبوا فيها مذهب القياس .

ورأى آخرون أن أفعالا كثيرة مما يتحقق فيه شرط تلك المقاييس قد وردت مصادرها فى صيغ خارجة عن القياس فصرفتهم كثرة انتقاص هذه المقاييس عن الاعتداء بها وذهبوا الى أن مصادر الأفعال الثلاثية انما يرجع فيها الى السماع .

ثم ان الذين ذهبوا بها مذهب القياس فريقان : الفريق الاول ويمثله سيبويه ، يرى أن كل الضوابط التى تحدد وتضبط مصادر الفعل الثلاثى لا يصح استخدامها قياسا مطردا وانما تستخدم حين لا يكون للفعل مصدر مسموع من العرب . فاذا ورد فعل لم يعرف عن العرب كيف نطقوا بمصدره جاز استخدام القياس بتطبيق الضابط والقاعدة أما مع ورود المصدر المسموع المعروف فلا يجوز لاننا مقيدون بالمصدر الذى نطقت به العرب وعرفناه عنهم ولا داعى معه لخلق مصدر جديد لم ينطقوا به نصا .

أما الفريق الثانى ويمثله الفراء وابن جنى فيرى أن فى رأى سيبويه اعنانا من غير داع اذ من

(73) النحو الوافى ج 3 ص 147 .
(74) دراسات فى العربية وتاريخها ص 52 .

المقرر أن ما هو مقيس على كلام العرب فهو من كلام العرب فليس استخدامنا المصدر القياسى مع وجود السماعى الا كاستخدامنا الالفاظ والكلمات التى نجرى عليها الرفع او النصب او الجر او الجزم فى اساليبنا الخاصة التى ننشئها انشاءا يختاره كل منا على حسب هواه ، ونؤلفها تاليفا مبتكرا لم تنطق به العرب نصا ولم تعلم عنه شيئا وان كان لا يخرج فى هيئة تكوينه ومادة كلماته وترتيبها وضبط حروفها على النسق الوارد عنهم ولا يتعدى حدودهم العامة فهى اساليبنا ومن صنعنا وهى فى الوقت نفسه اساليب عربية صميمة ، وتسمى بهذا الاسم لجرياتها على النظام العربى الاصيل فى مفرداتها وطرائق تركيبها وضبط حروفها فلا داعى عنده لمنع استخدام المصدر القياسى مع وجود السماعى المعروف ·

وقد رأى المجمع اللغوى الاعتماد على ما قاله ابن جنى وعلى ادلته فى كثير من المسائل الاخرى كما فى الجزء الاول من مجلة المجمع ص 226 ·

ونحن نؤيد الفراء وابن جنى فيما ذهبا اليه لان قصر القياس على الافعال التى لم يرد لها مصادر مسموعة يقتضينا ان نرجع لكل المظان المختلفة ونطيل البحث حتى نطمئن الى عدم وجود مصدر سماعى كى نستبيح استعمال المصدر القياسى · وفى هذا من الجهد المضنى والوقت الطويل مالا يقدر عليه خاصة الناس بل عامتهم ، ولو اخذنا به قبل استعمال كل مصدر لحملنا انفسنا ما لا نطيق ودفعناها الى اليأس والانصراف عن لغتنا وانكرنا واقع الحياة الذى قضى باستقلال العلوم والفنون وتفرغ طوائف العلماء للفروع المستقلة والاعتماد على رأيهم الخاص فيما تفرغوا له ، ثم ما هو المراد الدقيق من عدم معرفة المصدر الوارد للفعل ؟ ما حدود هذا ؟ ما ضبطه ؟ وكيف يتحقق مع تفاوت الناس علما وعملا واقتدارا على استحضار المراجع وغيرها ؟ لهذا نرى الفراء وانصاره سديد وفيه رفق وحكمة ومسايرة واضحة لطبائع الاشياء وليس فيه ما يسيء الى اللغة او يسد المسالك امام الراغبين ، فيها المقبلين على اصطناعها واعلاء شأنها ، لهذا يجب الاخذ به والاقتصار عليه ·

---

(75) النحو الوافى ج 3 ص 149 هامش ·

قد يكون المصدر الذى نضمه ولم ينطق به العرب نصا غريبا على السماع ولكن هذه الغرابة والوحشة تزولان بالاستعمال ·

أما المصادر السماعية او المصادر الشاذة فالحكم الصحيح على مثلها انه يجوز استعمال كل واحد منها بذاته مصدرا سماعيا مقصورا على فعله الخاص فلا يجوز استخدام وزنه فى ايجاد صيغة لفعل آخر غير فعله ·

كما يجوز ايضا استعمال المصدر القياسى لفعله، فاستعمال المصدر السماعى لفعل معين لا يمنع استعمال المصدر القياسى لهذا الفعل ، فمن شاء ان يصطنع المسموع او القياسى فله ما شاء ويجرى هذا على كل فعل له مصدران مقيس ومسموع · فان استعمال احدهما مباح لان استعمال المسموع مقصور على فعله دون باقى الافعال فلا يجوز صوغ مصدر على وزن المسموع لفعل آخر بخلاف المصدر القياسى فصيغته ليست مقصورة على فعل واحد بل هى عامة شاملة لكل فعل توافرت فيه الشروط وادخلته تحت العنوان العام الذى ينطبق عليه وعلى نظائره المصدر القياسى (75)·

الفصل الثالث

القياس ومجمع اللغة العربية :

ذكرنا فيما سبق أن الفارسى وابن جنى وصلا بالقياس الى ذروته · ومما يؤسف له أن هذه المدرسة لم تستمر فى سيرها حتى تؤتى ثمارها اذ بدأت تتراجع القهقرى بعد المئة الرابعة وغلب على اللغة وعلومها الجمود ثم آل هذا التراث الى علماء لا سليقة لهم نغشوه بأغشية من مؤلفاتهم لا روح فيها فلما كثرت الصحف والمجلات والمؤلفات احتاج علماء اللغة الى فيض من المصطلحات يعبرون بها عن حاجات العصر الحديثة فظهر فريقان : فريق دعا الى ادراج لغة السوق فى الكتابة والمدارس على عاميتها وعجمتها · وفريق جمد على ما ورد عن العرب الاولين · وكان تجاذب بين الفريقين معهما انصارهما الى أن قيض الله فريقا ثالثا حاول الحرص على التراث العربى الكريم فشمر

عن ساعد الجد يتحرى لهذه المستحدثات مصطلحات عربية ، فان لم يجد احدث لها من طريق الاشتقاق او المجاز او التعريب احيانا قليلة ·

وكانت اول محاولة فى هذا الشان قام بها المجمع العلمى العربى بدمشق الذى انشىء على عهد الملك فيصل الاول سنة 1918 وكان نشيطا كل النشاط اول حياته فامد الصحافة ودواوين الحكومة والمدارس والمعاهد بفيض صالح من الاسماء والمصطلحات كما انصرف الى اصلاح لغة الدواوين والصحف والكتب المدرسية بحيث لم يكن يجوز طبع كتاب لم ينظر فى لغته احد أعضاء المجمع غير الجاهلين ·

ولم يطل بمجمع دمشق هذا النشاط اكثر من عشر سنين ، ولكن الامر استمر خارجه وسهرت المعاهد العليا والثانوية على استمرار النهضة · ولا ينبغى ان ننسى هنا اثر التراجمة الاولين فى مطلع النهضة بمصر ولا اثر المصححين فى المطبعة الاميرية وفيها من شيوخ الازهر وغيرهم · فما ترجم قديما من كتب علمية فى الطب والهندسة والعلوم حافل باوضاع عربية وثمرات من ثمرات القياس تستحق التقدير ، وقد ينفع المجامع اليوم اطالة النظر فيما تشتت فى هذه الطبعات القديمة النادرة من مصطلحات ونحت واشتقاق فالمعروف أن مدرسة الالسن واساتذتها وخريجيها اتسمت بكثير من العمل والجد وقليل جدا من الاعلان والتبجح (76) ·

ثم جاءت بعد هذه المحاولات محاولة مصر وهى من اهم المحاولات ، حيث صار الشعور بضرورة المجمع رغبة عامة للامة لباها الملك فؤاد الاول حيث اسس (مجمع فؤاد الاول للغة العربية) وبدأ عمله سنة 1934 وقد ضم حين التاسيس اعلاما من خير علماء العربية ·

وقد نص فى المادة الثانية من مرسوم انشائه : ان المجمع يحافظ على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ملائمة حاجات الحياة فى العصر الحاضر · هذا وقد اصبح اسم المجمع اليوم : مجمع اللغة العربية (77) ·

وكان فى جملة ما عالج من موضوعات قضية القياس فى اللغة فاصدر فيها بعد مذكرات حول المشروعات المتقدمة قرارات سديدة يصح أن نعدها بعثا لحركة القياس بعد نوم امتد تسعمائة سنة من المائة الخامسة للهجرة حتى اليوم · والقرارات التى اتخذها المجمع من محضر الجلسات هى :

1 ــ قرار التضمين : (78) ·

التضمين : ان يؤدى فعل او ما فى معناه فى التعبير مؤدى فعل آخر او ما فى معناه فيعطى حكمه فى التعدية واللزوم · والمجمع يرى انه قياسى لا سماعى بشروط ثلاثة :

الاول : وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس ·

الثانى : تحقق المناسبة بين الفعلين ·

الثالث : ملاءمة التضمين للذوق العربى ·

ويوصى المجمع الا يلجأ الى التضمين الا لغرض بلاغى · ومن امثلته فى القرآن : (79)

1 ــ قوله تعالى « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم » البقرة (2 ــ 14) واصل خلا يتعدى بالباء · يقال خلوت بفلان فضمن هنا معنى الانتهاء او الافضاء فعدى بالى ·

2 ــ قوله تعالى : « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » البقرة (2 ــ 15) اصله ويمد لهم فى طغيانهم ، ضمن معنى يزيدهم فعدى بنفسه ·

3 ــ قوله تعالى : « والله يعلم المفسد من المصلح » البقرة (2ــ 220) ضمن يعلم معنى يميز فتعدى بمن ·

---

(76) فى اصول النحو ص 119 ·
(77) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ج 1 ص 6 ·
(78) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ج 1 ص 33 ·
(79) نفس المصدر ج 1 ص 189 محاضرة عنوانها (الغرض من قرارات الجمع والاحتجاج لها) للاسكندرى.

4 ــ قوله تعالى : « ولتكبروا الله على ما هداكم » البقرة (2 ــ 185) ضمن لتكبروا معنى لتحمدوا فعدى بعلى ·

5 ــ قوله تعالى : « فاماته الله مئة عام ثم بعثه » البقرة (2 ــ 295) ضمن اماته معنى البثه اى البثه ميتا مئة عام ·

6 ــ قوله تعالى : « لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا » آل عمران (3 ــ 115) الالو : (التقصير) واصله ان يعدى بالحرف وعدى الى مفعولين فى قولهم (لا الوك نصحا) وفى (لا يالونكم خبالا) على تضمين معنى المنع والنقص ·

7 ــ قوله تعالى : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » آل عمران (3 ــ 115) ضمن الكفر معنى الحرمان فتعدى الى مفعولين ·

8 ــ قوله تعالى : « ولا تاكلوا اموالهم الى اموالكم » النساء (4 ــ 2) ضمن لا تاكلوا معنى لا تضموا ·

9 ــ قوله تعالى : « ولو جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به » النساء (4 ــ 82) ضمن اذاعوا معنى تحدثوا فعدى بالباء ·

10 ــ قوله تعالى : « وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك » هود (11 ــ 53) ضمن الترك معنى الصدور عن الشئ ·

11 ــ قوله تعالى : « ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم » هود (11 ــ 30) ضمن ينصرنى معنى يجيرنى فعدى بمن ·

12 ــ قوله تعالى « وعتوا عن امر ربهم » الاعراف (7 ــ 76) اصل معنى عتوا : استكبروا ضمن معنى انحرفوا وانصرفوا فعدى بعن ·

13 ــ قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها » الاعراف (7 ــ 99) ضمن يهدى معنى يبين ويتضح فعدى باللام ·

14 ــ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض » التوبة (9 ــ 39) ضمن اثاقلتم معنى ملتم واخلدتم فتعدى بالى والمعنى تباطاتم ·

15 ــ قوله تعالى : « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه » التوبة (9 ــ 121) ضمن يرغبوا معنى يبخلوا ·

2 ــ قرار التعريب : (80)

يجيز الجمع أن يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية ــ عند الضرورة ــ على طريقة العرب فى تعريبهم ·

3 ــ قرار المولد : (81)

المولد : هو اللفظ الذى استعمله المولدون على غير استعمال العرب وهو قسمان :

1 ــ قسم جروا فيه على اقيسة كلام العرب من مجاز او اشتقاق او نحوهما كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ، وحكمه انه عربى سائغ ·

2 ــ وقسم خرجوا فيه على اقيسة كلام العرب اما باستعمال لفظ اعجمى لم تعربه العرب · وقد اصدر المجمع فى شان هذا النوع قراره ، واما بتحريف فى اللفظ او فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح ، واما بوضع اللفظ ارتجالا ، والجمع لا يجيز النوعين الاخيرين فى فصيح الكلام ·

(فى الصياغة والاشتقاق) (82)

4 ــ قرار فعالة للحرفة :

يصاغ للدلالة على الحرفة او شبهها من اى باب من ابواب الثلاثى مصدر على وزن فعالة بالكسر·

5 ــ قرار فعلان للتقلب والاضطراب :

يقاس المصدر على وزن فعلان لفعل اللازم المفتوح العين اذا دل على تقلب واضطراب ·

(80 ، 81) مجلة المجمع ج 1 ص 33 ــ 34 ·
(82) مجلة المجمع ص 34 ــ 35 ج 1 ·

6 ــ قــرار فعــال للمــرض :

يقاس من فعل اللازم المفتوح العــين مصــدر على وزن فعال للدلالة على المرض ·

7 ــ قــرار فعال وفعيل للصوت :

اذا لم يرد فى اللغة مصدر لفعل اللازم المفتوح العين الدال على صوت يجوز ان يصاغ له قياسا مصدر على وزن فعال او فعيل ·

8 ــ قــرار المصــدر الصنــاعى :

اذا اريد صنع مصدر من كلمة يزاد عليها ياء النسب والتــاء ·

9 ــ قرار فعال للنسبة الى الشيء :

يصاغ فعال قياسا للدلالــة على الاحتــراف او ملازمة الشيء · فاذا خيــف لبس بين صانــع الشيء وملازمه كانت صيغة فعال للصانع وكان النسب بالياء لغيره فيقال زجاج لصانع الزجاج وزجاجى لبائعه ·

10 ــ قــرار اسم الآلــة :

يصاغ قياسا من الفعل الثلاثى على وزن مفعل ومفعلة ومفعال للدلالة على الآلة التى يعالج بها الشئ·

ويوصى المجمع باتباع صيغ المسموع من اسماء الآلات ، فاذا لم يسمع وزن منها لفعل جاز ان يصاغ من أى وزن من الاوزان الثلاثة المتقدمة ·

11 ــ قرار الاشتقاق من اسماء الاعيان :

اشتق العرب كثيرا من أسماء الاعيان · والمجمع يجيز هذا الاشتقاق للضرورة فى لغة العلوم ، ومــن امثلته المنكب فانه مشتق وضع وضعا ثانويا للعضو الخاص من جسم الانسان والحيوان ، فاذا قيل تنكب فلان قوسه اى ادخل ذراعه فيها وحملها على منكبه كان فعل تنكب مشتقا من اسم عين هو المنكب لا من النكوب بمعنى العدول والتنحى ناحية بــل المعنــى القاها على مجتمع الكتف والعضد من الجسم · وفى رد الفعل الى المعنى الاصلى تكلف وركاكة كما يفعل ذلك من ليس له الملم بمبادىء علم اللغات وتاريخ نشأة البشر والشعوب (83) ·

12 ــ قرار مطاوع فعل الثلاثى :

كل فعل ثلاثى متعد دال على معالجة حسيــة فمطاوعه القياسى انفعل ما لم تكن فاء الفعل واوا او لاما او نونا او ميما او راءا ويجمعها قــولك ولنمــر فالقياس فيه افتعل ·

13 ــ قرار مطاوع فعل بتشديد العين :

قياس المطاوعة لفعــل مضعف العين تفعــل والاغلب فيما ضعف للتعدية فقط ان يكون مطاوعــة ثــلاثيــة ·

14 ــ قــرار مطــاوع فاعــل :

فاعل الذى اريد به وصف مفعوله باصل مصدره مثل باعدته يكون قياس مطاوعه تفاعل كتباعد ·

15 ــ قــرار مطــاوع فعلــل :

فعلل وما الحق به قياس المطاوعة منــه على تفعلل نحو دحرجته فتدحرج وجلببته فتجلبب ·

16 ــ قــرار التعديــة بالهمــزة :

يرى المجمع ان تعدية الفعــل الثلاثــى اللازم بالهمزة قياسية ·

17 ــ قرار صيغة استفعل للطلب وللصيرورة :

يرى المجمع ان صيغة استفعل قياسية لافادة الطلب والصيرورة ·

18 ــ ملحقات الاصول العامــة :

الاول : يفضل اللفظ العربى على المعرب القديم الا اذا اشتهر المعرب ·

الثانى : ينطبق بالاسم المعرب على الصورة التى نطقت بها العرب ·

---

(83) مجلة مجمع اللغة العربية ج 1 ص 236 ·

الثالث : تفضل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة الا اذا شاعت ·

الرابع : تفضل الكلمة الواحدة على كلمتين فاكثر عند وضع اصطلاح جديد اذا امكن ذلك · واذا لم يمكن ذلك تفضل الترجمة الحرفية (84)

وهناك قرارات للمجمع فى دور انعقاده الثانى وهى :

1 ــ قرار تكملة مادة لغوية ورد بعضها فى المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها ·

2 ــ قرار النسبة الى جمع التكسير عند ضرورة التمييز ونحوها ·

المذهب البصرى يرى فى النسب الى جمع التكسير ان يرد الى واحدة ثم ينسب الى هذا الواحد ، ويرى المجمع ان ينسب الى لفظ الجمع عند الحاجة كارادة التمييز او نحو ذلك ·

3 ــ قرار قياس صيغة مفعلة للمكان الذى يكثر فيه الشىء : تصاغ مفعلة قياسا من اسماء الاعيان الثلاثية الاصول للمكان الذى تكثر فيه هذه الاعيان سواء اكانت من الحيوان أم من النبات ام من الجماد ·

4 ــ قرار قياس صيغة فعال للمبالغة :

يصاغ فعال للمبالغة من مصدر الفعل الثلاثى اللازم والمتعدى (85) · وبعد هذه القرارات استمر المجمع فى عقد المؤتمرات اللغوية واستمر الاعضاء فى تقديم ابحاثهم ، ومن جملة الابحاث التى قدمت فى القياس بحث فى (جموع التكسير القياسية) للاستاذ احمد على الاسكندرى عضو المجمع (86) وهو بحث لغوى قيم تكلم فيه الاستاذ عن القياس اللغوى وما يقتضى القياس · وبعد مناقشات تبودلت بين حضرات الاعضاء اقرت القرارات الموجودة فى القسم الرسمى من المجلة (87) واقر القرار الآتى :

يرى المجمع أن الكلمات التى يستعملها قدامى النحويين والصرفيين وهى : القياس والاصل والمطرد والغالب والاكثر والكثير والباب والقاعدة الفاظ متساوية فى الادلة على ما ينقاس وان استعمال كلمة منها فى كتبهم يسوغ للمحدثين من المؤلفين وغيرهم قياس ما لم يسمع على ما سمع وان المقيس على كلام العرب هو من كلام العرب) (88) ·

ومن البحوث الاخرى التى قدمت الى المجمع فى القياس بحث الاستاذ احمد امين بعنوان (مدرسة القياس فى اللغة) · وقد القى هذا البحث فى الجلسة التاسعة لمؤتمر 3 يناير 1949 وهو بحث لغوى شيق ذو اصالة وعمق ، وقد بداه الاستاذ بنبذة تاريخية عن القياس ثم اشهر علماء المدرسة ، وختم بحثه بفوائد القياس فى اللغة (89) ·

وقد نوقشت المحاضرة فى الجلسة نفسها من قبل الاعضاء ووافق المؤتمر على الاخذ بمبدأ القياس فى اللغة على نحو ما اقره المجمع سلفا من قواعد وجواز الاجتهاد فيها متى توفرت شروطه كما اشار الى ذلك الاستاذ احمد امين فى محاضرته (90) ولاهمية الموضوع تقرر ان ينعقد مؤتمر المجمع للدورة الثلاثين يوم الاثنين الموافق 24 فبراير سنة 1964 لمدة اسبوعين(91)

وفضلا عما ينظره المؤتمر من نماذج معجمية ومصطلحات علمية وحضارية واصول لغوية تقرر أن يطرح على المؤتمر موضوع (القياس فى اللغة) وان يقدم الاعضاء العاملون والمراسلون بحوثا فى نواحيه المختلفة مثل :

1 ــ مذهب القياس فى اللغة نشأته وتطوره ·

2 ــ القياس النحوى واللغوى ·

3 ــ القياس بين البصرة والكوفة ·

---

(84) مجلة المجمع ج 1 ص 37 ·
(85) نفس المصدر ج 2 ص 33 ــ 35 ·
(86) نفس المصدر ج 4 ص 174 ·
(87) نفس المصدر ص 1 ج 4 ·
(88) نفس المصدر ج 4 ص 186 ·
(89) نفس المصدر ج 7 ص 315 ·
(90) نفس المصدر ج 7 ص 302 ، القرارات العلمية للمجمع ·
(91) نفس المصدر ج 17 ص 237 ·

4 ــ القيـــاس بين الفقهاء والنحاة ·

5 ــ القياس والسماع بين الانصار والخصوم·

6 ــ اثـــر القيـــاس فى اللغـــة ·

7 ــ اقيســـة اللغـــة ·

8 ــ مجمع اللغة العربية والقياس ·

9 ــ مدى الحاجة فى المصطلحات العلمية الى القيـــاس فى اللغـــة ·

وحين مراجعتنا الجزء الثامن عشر مـــن المجلـــة الذى يبدا بالسنة 1964 لم نعثر على نتيجة القرار ، ولا نعلم ان كانت صدرت فيما بعد · والذى نختم به هذا البحث أن اللغة العربية فيضا زاخرا من المرانة على اصلها أن يفيدوا منه ولا يعطلوه اذ قد ثبت على مر الزمان انها تسبـــق الباحثـــين والمستنبطـــين ولا يعجزونها · وان كل عصر افاد منها على قدر استعداد اهله ومواهبهم ومكانهم وحسبك أن تقابل بين الاصمعى والخليل وقد كانا فى زمن واحد وبين ابن خالويه وابن جنى وقد اظلهما عصر واحد ايضا لتميز مدى ما يفيد ذو الملكة المبدعة الخلاقة من الدائرة الضيقة التـــى يدور فيها ذو الذهن المقيد · واللغة بعد واحدة والفرص المتاحة ايضا واحدة ·

النتـــائـــج العـــامـــة للبحث :

عرض هذا البحث لاهمية القياس فى اللغـــة ، وقد انتهينا منه الى هذه النتائج العامة :

1 ــ اننا نجد كتب اللغة كثيرا ما تذكر المصادر ولا تذكر افعالها او العكس ، او يذكر الفعل ولا يذكر من اى باب هو ، فالقول بالقياس يمكننا من تكميل هذا النقص بحمل المجهول على المعلوم · فمتى راينا هم يكثرون من المصادر على وزن خاص اذا كان الفعل على وزن خاص فى الاعم الاغلب امكننا ان نقيس ما لم يذكروا على ما ذكروا وان نعده من كلام العرب وهكذا. وهذا الباب يكمل نقصا كبيرا فى المعاجم ·

2 ــ اننا اذا وجدناهم يشتقـــون وزنا خاصا ويستعملونه للدلالة على شىء خاص امكننا ان نقيس عليه ما لم يذكروا · فاذا وجدناهم مثلا يصوغون فعال للدلالة على محترف الحرفة او المهنة كنجـــار وحداد ونعال ، امكننا ان نقيس عليـــه من اسماء اصحاب المهن والحرف ما لم يذكروه ·

3 ــ الاعتراف بالمولد او الدخيل وعـــده عربيا وادخاله فى معاجمنا ما دام يجرى على الصيغ العربية ويسير على نمط العرب فى وضعهم او اشتقاقهم مثل كلمة الوزائع وقد استعملها ابـــن خلـــدون بمعنـــى الضرائب التى يوزعها الحاكم على الرعية ومثـــل : تندر اذا جاء بالنادرة وتنادر عليه اذا جعله موضع نادرته ، وقد استعملها صاحب الاغانى ، ومثل : المقيدة وهى الدفتر الذى يكتب به الرجل ما يمر به تذكرة لنفسه ومثل مئات الكلمات التى استعملت فى العصور المختلفة للدلالة على معان جديدة من مثل ما اثبته دوزى فى معجمه ، فما بالنا لا نثبته فى معاجمنا قياسا على ما فعل العرب ؟

4 ــ اننا نجد العرب احيانا يلحظون فى الشىء معنى من المعانى فيسمونه باسم مشتق من الكلمـــة التى تدل عليه ، فقد سموا القارورة قارورة لانهـــم لحظوا ان الشىء يقر فيها وسموا الدار دارا لانه يكثر فيها الدوران ، فلماذا لا نستعمل هذا الباب فيمـــا يقابلنا من كثير من الفـــاظ الحضارة والمصطلحـــات العلمية الكثيرة التى نقف امامها حائرين ، ولا نشتق من الكلمات العربية كلمات تدل عليها ملاحظين ما نلمحه من معنى فيها ؟

5 ــ وهناك باب اخطر من ذلك واجرا وهو التفهم فى عمق واناة كيف وضع العرب لغتهم ؟ فنرى مثلا ان العرب كان لها ذوق مرهف فى وضع الكلمات استنادا الى محاكاة الاصوات تارة بتقليدها كما سموا صوت الماء خريرا وصوت الحجر صكا وصوت الريح هبوبا والضفدع نقيقا واللبن درا والمريض انينا .. الخ محاكاة هذه الاصوات التى هى او يتخيلون انها من صوت هذه الاشياء ثم صاغوا من هذه الاسماء افعالا ثم توسعوا فى الاشتقاق منها للدلالة على ما يشبهها وما يقرب منها ·

فاللغة عند حدوثها الاول كانت اصواتا يحدثها المتكلم حاكيا للاصوات المسموعة ثـــم صـــارت تلك الاصوات المحبكة علامـــة لما يســـمـــع بالاذن او يبصر

بالعين او يلمس باليد او يشم بالانف او يعقل بالعقل ·

وعند تحرى هذا الباب نراهم يحاكون أولا صوت المسموع بالاذن ثم ينقلونه الى المبصر بالعين ثم ينقلونه الى المحسوس بباقى الحواس الخارجية ثم الى المعقول بالعقل ، فمثلا لو نظرنا الى كلمة حسن وتتبعناها وجدنا ان المصدر الاصلى لحسن كان صوتا سينيا تخيلوا انه يسمع عند الحسن اى عند المس باليد ثم انتقلوا من الاحساس باليد الى الاحساس بغيرها فسموا كل ما يشعر به محسوسا وسموا الآلات التى يحس بها حواس ثم اطلقوها على العلم الحادث من الحواس وعلى اليقين الحاصل من العلم بها واشتقوا أحس بالشيء اذا ادركه بحاسته ونقلوه الى أحسست بالشيء اى ايقنت به ، ولو تتبعت المادة لوجدتها كلها من هذا القبيل مندرجة على نحو ظريف ، ثم نوعوا هذا الصوت السينى فجعلوه مرة حسا ومرة لمسا ومرة حسا · ولو تقصينا هذا الباب على هذا النمط لافادنا فائدة كبرى ولدلنا على ان مصادر اللغة التى تحاكى الاصوات فى منبعها الاول كانت مصادر محصورة تعد بالعشرات ، فان توسعنا قليلا قلنا بالمئات ، ثم تضخمت هذه المصادر بالاشتقاق الصغير والاشتقاق الكبير على مدى الازمان وعلى حسب ما يجد من المعانى وما يقرب من المصادر الاصلية وهو باب يفيدنا عند ما يفسر أصحاب المعاجم أو المفسرون للقرآن الكريم والحديث الشريف والنصوص الادبية اللفظ بتفسيرات مختلفة فنستطيع به أن نرجح قولا على قول ورايا على راى كما نستفيد منه استكشاف بعض الاغلاط التى وردت فى معاجم اللغة · ومنشؤها خطأ فى النقل أو تصحيف فى الكتابة او نقل عن الثغ أو نحو ذلك ، واذا كان ابن جنى قد سمى ما استكشفه الاشتقاق الكبير فيصح ان نسمى هذا الضرب : الاشتقاق الاكبر ·

وتارة كانوا يلحظون ما بين الحرف والمعنى من مناسبة كما لحظوا ان الحاء اذا اتت فى آخر الكلمة دلت على الاتساع والانتشار مثل ساح وباح وصاح وفاح وشرح ومرح · والكلمة المبدوءة بالشين على التشتت والتفرق مثل شتت وشطر وشعث وشع · الخ · والكلمات المبدوءة بالغين على الغموض مثل غمض وغابت الشمس وغبش الليل وغار الماء وغطى الشيء .. الخ · وقد فطن بعض كبار اللغويين الى هذا الامر ونبهوا عليه كما يفعل الزمخشرى كثيرا فى تفسيره ·

وهذا الامر وان لم يصرح العرب به فقد كان مركوزا فى طبيعتهم مندسا فى اذواقهم يعتمدون عليه فى وضع الكلمات والاشتقاق منها ، فمن بلغ من قوة الحس مبلغهم ومن دقة الملاحظة دقتهم كان له بمقتضى القياس مثل ما لهم ·

ولكن من الذى يجوز له القياس فى اللغة ؟ اننا اذا قلنا بجوازه لكل فرد كان الامر فوضى وتعرضت اللغة للاضطراب ولكنا نقول كما قال الفقهاء ونحذو حذوهم ، ففى عصورهم الزاهية كان الاجتهاد وكان البحث فى المجتهد والقول فى شروطه ، وحصروا قياس الاحكام وتقديم العدالة وصحة الحكم فى يد المجتهدين وشرطوا للمجتهد شروطا تتلخص فى ان يكون محيطا بمدارك الشرع متمكنا من وسائل النظر فيها والاستنباط منها ، وعلى الجملة يكون فضلا عن مواهبه الذهنية مثقفا ثقافة شرعية وما يلزمها من ثقافة لغوية ونحوية .. الخ ·

وعلى هذا القياس يجب ان نقول فى المجتهد اللغوى ، فلا بد أن يكون مثقفا ثقافة لغوية وادبية واسعة متمكنا من النحو والصرف لانهما وسائل من وسائل اتقان اللغة وفوق ذلك ان يكون له ذوق قد ارهف بكثرة القراءة اللغوية والادبية ومعرفة بسر الوضع على النحو حتى يستطيع أن يدرك بحسه الذى كونته الثقافة وعلمه العميق الجيد من الردىء وما يصح وما لا يصح ونحو ذلك · كما يستطيع بهذه المؤهلات كلها أن يتخير اللفظ المناسب للمعنى المناسب اما بوضع جديد او اشتقاق من لفظ قديم ، فاذا بلغ هذا المبلغ كان له الاجتهاد اللغوى كما كان لنظيره الاجتهاد الفقهى ·

مصـــادر البحث :

مرتبـــة على حروف الهجاء

1 ــ ادب الكاتب ، ابن قتيبة ، مطبعـــة السعـــادة (1958) ط 3 ·

2 ــ الاقتراح ، جلال الدين السيوطى ، حيدر آبار ط 2

3 ــ الاقتضاب فى شرح ادب الكتاب ، ابـــن سيـــد البطليوسى ، المطبعة الادبية بيروت (1901)

4 ــ الانصاف فى مسائل الخلاف ، ابو البركات ابن الانبارى ، القاهرة (1961)

5 ــ بغية الوعاة فى طبقات اللغـــويين والنحـــاة ، السيوطى ، القاهرة (1965) ط 1

6 ــ البيان فى تفسير القرآن ، ابو القاسم الخوئى ، النجف (1966) ط 2

7 ــ تفسير فخر الدين الرازى ، اسلامبول 1307 هـ

8 ــ حاضر اللغة العربية فى الشام ، سعيد الافغانى

9 ــ خزانة الادب ، عبد القادر البغدادى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ·

10 ــ الخصائص ، ابن جنى ، دار الكتب المصرية ط 2

12 ــ شرح ابن عقيل ، القاهرة (1965) ط 14

13 ــ الصاحبى فى فقه اللغة ، احمد بن فارس ، القاهرة (1910) ·

14 ــ فى اصول النحو ، سعيد الافغانى ، دمشق (1964) ·

15 ــ فى النحو العربى ، نقد وتوجيه ، الدكتور مهدى المخزومى ، القاهرة (1966) ط 1 ·

16 ــ القاموس المحيط ، الفيروزابادى ·

17 ــ القـــرآن الكـــريم

18 ــ قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ، دمشق ، مطبعة ابن زيدون (1935) ·

19 ــ لسان العرب ، ابن منظور ، بولاق 1301 هـ

20 ــ اللغة ، ج · فندريس ، ترجمـــة القصاص والدواخلى ، القاهرة (1950)

21 ــ مجلة المجمع العلمى بدمشق ، المجلد 11 بع عشر

22 ــ مجلة مجمع اللغـــة العربيـــة ، المجلـــدات (1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 7 ، 17 ، 18)

23 ــ مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو، مهدى المخزومى (1958) ط 2

24 ــ معجم الادباء ، ياقوت الحموى ج 12 مطبعة دار المؤمـــن

25 ــ المعجم المفهرس ، محمد فؤاد عبد الباقى ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب (1945) ط 1

26 ــ مغنى اللبيب ، ابن هشام الانصارى ، بيروت ، دار الكتاب العربى

27 ــ من اسرار اللغة ، ابراهيم انيس

28 ــ النحو الوافى ، عباس حسن ج 3 ، دار المعارف بمصر (1961)

29 ــ وفيات الاعيان ، ابـــن خلكـــان ، القاهـــرة (1948) ط 1 ·

اللغة العربية واللغة اللاتينية
(مقارنة تاريخية)

- المرحوم - الأستاذ ساطع الحصري

ان قضية الفصحى والعامية في اللغة العربية ، لهي من القضايا التي تثار من حين الى حين ، منذ عدة عقود من السنين .

يثيرها – على الاكثر – بعض الذين يدعون الى التخلي عن الفصحى . والتحول عنها الى العامية . في الكتابة والخطابة والحوار . ولاسيما في القصص والمسرحيات .

ويستند هؤلاء في دعوتهم هذه الى ملاحظات عديدة ومتنوعة اهمها واعمها – على ما أعتقد – يحوم حول تشبيه العربية باللاتينية .

انهم يقولون : «ان حالة العربية الفصحى الآن . لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما . فمصيرها شبيه بمصير اللغة المذكورة حتماً . من المعلوم ان اللاتينية ماتت . بعد أن ولدت اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. التي تعرف الآن باسم (اللغات اللاتينية) . وهذه اللغات أصبحت منذ عدة قرون لغات علم وأدب . بعد أن كانت بمثابة (لغات عامية) مدة غير قصيرة من الزمن . وأما اللاتينية الاصلية فقد اندثرت وماتت ، بعد أن كانت هي لغة الادب والعلم في معظم بلاد الغرب ، مدة قرون عديدة.»

«فلابد أن يحدث مثل ذلك في اللغة العربية أيضا . فمن العبث أن تبذل الجهود لتأخير هذا المصير . بل من الخير لنا أن نؤمن بذلك من الآن . فنوجه جهودنا الى جعل (العامية) لغة الكتابة والعلم والادب ، بوجه عام ...»

إن أمثال هذه الملاحظات تسيطر على أذهان الكثيرين ممن يقولون بوجوب عدم التمسك بالعربية الفصحى ، وهي تظهر من خلال احاديثهم وكتاباتهم بأشكال وأسباب شتى .

ولهذا السبب . أعتقد بأن بحث قضية الفصحى والعامية يجب أن يبدأ بدرس هذه (الحجة الاساسية) . يجب علينا ان نلقي نظرة فاحصة على تاريخ اللغات

اللاتينية ، لكي نستطيع ان نحكم –بطريقة علمية سليمة هل تشبه حالة اللغة العربية الآن حالة اللاتينية قديماً؟ وهل سيكون مصيرها شبيهاً بمصير اللغة اللاتينية حتماً ؟

* * *

لاشك في ان اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية .. قد تفرعت من اللغة اللاتينية .

وصحيح أنها كانت –في بادىء الامر– لغات عامية ، ثم تحولت –تدريجياً– الى لغات علم وادب راقية .

وصحيح أيضاً ، أن اللاتينية الكلاسيكية ، قد فقدت الحياة ،حيث لم يبق على وجه البسيطة امة او شعب يتكلم بها

هذه كلها من الحقائق الثابتة ، التي لا يمكن لاحد أن ينكرها ، بوجه من الوجوه .

ولكن ... هناك حقائق اخرى ، لابد من اخذها بنظر الاعتبار في هذا المضمار .

ان اللغات التي تفرعت عن اللاتينية لم تنحصر باللغات التي ذكرناها آنفا . بل قد تفرعت عن اللاتينية عشرات اللغات ومئات اللهجات ، إلا أن معظم هذه اللغات واللهجات لم تعش الى يومنا هذا ، بل تركت محلها الى اللغات اللاتينية المتداولة الآن ، وكل واحدة منها قد قامت مقام عدد غير قليل من اللغات واللهجات المندثرة .

ويفهم من ذلك : ان تطور اللغات يعرض الى الانظار نوعين من التطورات : التطور نحو التفرع ، والتطور نحو التوحد . ويسمي الباحثون الطور الاول (طور التجزؤ mercellement)والطور الثاني (طور التوحد : (réunification

إن من يحصر نظره في النوع الاول من التطورات . فلا ينتبه الى النوع الثاني منها .. يبقى بعيداً عن إدراك الحقائق على وجهها الصحيح ، بعداً كبيرا .

فيجدر بنا ان ندرس صفحات تطور اللغات اللاتينية . لنطلع على أطوار (التجزؤ) وعوامله من ناحية . وأطوار (التوحد) وعوامله من ناحية اخرى .

وبهذه الصورة –وبهذه الصورة وحدها – نستطيع أن نصل الى نتيجة علمية ، في هذه القضية الهامة .

تفرع اللغة اللاتينية

– 1 –

ان اللاتينية كانت في بادىء الامر لغة خاصة بمدينة روما وضواحيها المعروفة باسم (لاتينيوم Latinium) ، ثم أصبحت لغة ايطاليا باجمعها ، بسبب توسع حكم الرومان فيها .

وبعد ذلك انتشرت الى جميع البلاد المحيطة بالبحر الابيض المتوسط . مع الفتوحات التي تمت في عهد الامبراطورية .

وكان لاهالي تلك البلاد الشاسعة لغات خاصة بهم ، مثل اليونانية . والآرامية . والعربية ، والقبطية، والغوتية. والبربرية ، والغالية . والايبرية ، والليغورية . والسلتية.. الخ...

وعندما دخلت اللاتينية تلك البلاد ، مع الجيوش والحكام . بدأ نوع من التنازع والتفاعل بينها وبين اللغات الدارجة في البلاد المفتوحة . واما نتائج هذا التفاعل والتنازع . فقد اختلف باختلاف اللغات والاقطار .

في الشرق لم تستطع اللاتينية ان تتغلب على اليونانية . لان اللغة المذكورة كانت مقترنة بحضارة أرقى من حضارة الرومان ، وبأدب أرفع من الادب اللاتيني ، ولذلك أثرت في اللاتينية أكثر مما تأثرت بها . فحافظت البلاد اليونانية على شخصيتها اللغوية . على الرغم من خضوعها لحكم الرومان وسيطرتهم السياسية .

ومن المعلوم ان ذلك كان من جملة العوامل التي أدت إلى انشطار الامبراطورية الرومانية الى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية . حيث

اللغة الرسمية (اليونانية) في الشرقية . وظلت (اللاتينية) في الغربيـــة .

وأما في الغرب – في البلاد التي تعرف الآن باسم فرنسا واسبانيا وبريطانيا العظمى – فقد حدث عكس ذلك تماما : تغلبت اللاتينية على لغات البلاد المفتوحة ، لان تلك اللغات كانت محرومة من أدب مدون ومكتوب ، كما أنهـــا كانت غير مدعومة بحضارة راقية .

ولكن هذه الغلبة لم تتم إلا بعد تفاعل وتنازع استمرا نحو خمسة قرون ، ومن الطبيعي ان اللاتينية تأثرت خلال هذه المدة الطويلة بخصائص تلك اللغات . وتغيّرت عن اصلها في كثير من الامور .

* * *

كانت اللاتينية قد ارتقت كثيراً . فأصبحت لغة أدب رفيع جداً . بفضل الخطباء والشعراء والعلماء الذيـــن نبغوا في عهد الامبراطورية الزاهر . أمثال شيشـــرون ، وفيرجيل . ولوكرس ...

ولكن هذه اللاتينية الادبية – اللاتينية الكلاسيكيـة – كانت بمثابة لغةأريستوقراطية . لا يمارسها ولا يحسنها إلا النخبة الممتازة من الحكام والادباء والمتنورين . إنها لم تتغلغل كثيراً بين طبقات العوام . وظل الناس يتكلمون بلهجات لاتينية بسيطة ، كان الرومان يميّزونها عـــن اللاتينية الكلاسيكية ، ويسمونها بأسماء خاصة . مثل : كلام العوام ، اللغة الدارجة ، لغة الفلاحين .

sermo vulgaris
linga usualis
lingum rusticum

ان الفتوحات الرومانية كانت تنشر اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامية في وقت واحد : الكلاسيكية مع الحكام والمتنورين والعامية بواسطة الجنود والتجار والفلاحيـن الذين استوطنـــوا البلاد المفتوحـــة ، وصاروا يعيشـون ويعملون بين أهاليها الاصليـــين .

ومن الطبيعي أن اللاتينية الكلاسيكية بقيت خلال هذا الانتشار كما هي : بمفرداتها وقواعدها الصرفية والنحوية المدونة في الكتب . ولكن اللاتينية العامية لم تسلم مـــن التغيّر والتحول . لانها كانت تنتقل وتنتشر عن طـريق المشافهة وحدها ، فكان من الطبيعي ان تتأثر خلال هذا الانتشار بخصائص اللغات المحلية القديمة ، ولا سيما من اساليبها الصوتيـــة .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار ، أن اللغـــات الدارجة في البلاد المفتوحة التي ذكرناها آنفاً . كانت كثيرة ومتنوعة ومتشعبة الى عدد كبير من اللهجات . فكان من الطبيعي ان يؤدي تفاعل اللاتينية العامية مع كل واحدة من هذه اللهجات واللغات المحلية . في تلك الاقاليم المتنوعة . الى تكوين لغات ولهجات عديدة . تختلف عن اللاتينية الاصلية . في كثير من الخصائص .

ولهذا السبب . يرجح الباحثون تسمية هذه اللغـــات واللهجات الجديدة بال (الرومانية) تمييزاً لها عن اللاتينية الاصليـــة .

– 2 –

ولكن .. هذه اللغات الرومانية الجديدة لم تكد تتغلب على اللغات المحليـــة فتستقر – نوعاً ما – على حـــالات واساليب معيّنة . حتى تعرضت الى عوامل قوية مـــن التحولات والتغيرات الجديدة : إذ دخلت البلاد المذكورة لغات جرمانية عديدة . من جراء استيلاء القبائل الجرمانية عليها ، واستيطان عدد غير قليل من القبائل المذكورة في مختلف أقطارهـــا .

ومن الطبيعي . أن قام عندئذ تفاعل وتنازع بيـــن للغات واللهجات الجرمانية التي كان يتكلم بها الغـــزاة والمهاجرون . وبين اللهجات الرومانية التي كان يتكلم بها أهـــالي البـــلاد .

واما نتائج هذا التنازع الجديد . فقد اختلفت – هي

أيضاً – باختلاف البلاد : ففي بريطانيا العظمى وبريطانيا الصغرى تغلبت اللغات الجرمانية على الرومانية ، واصبحت تلك البلاد جرمانية اللغة . ولكن في سائر أقاليم فرنسا واسبانيا وايطاليا – بعكس ذلك – تغلبت اللغات الرومانية على الجرمانية ، حيث نسي الفاتحون والمهاجرون – بمرور الزمان وبالتدريج – لغاتهم الاصلية، وصاروا هم أيضاً يتكلمون باللغات الرومانية . مثل أهل البلاد التي فتحوها وهاجروا إليها .

ولكن ذلك لم يتم ، إلا بعد مرور نحو ثلاثة قرون .

ومن الطبيعي أن يكون قد حدث خلال هذه المدة تفاعل بين لغات الفاتحين ولغات البلاد المفتوحة . ولذلك تأثرت الرومانية بعض التأثر بخصائص اللغات الجرمانية ، فازدادت بذلك تباعداً عن اللاتينية الاصلية .

ومما يجب ألا يعزب عن البال في هذا المضمار : ان اللغات الجرمانية التي دخلت مع القبائل الغازية المعلومة ، الى مختلف أقطار البلاد التي تعرف الآن باسم ايطاليا وفرنسا واسبانيا .. كانت متنوعة ومتشعبة في حد ذاتها . فتفاعل هذه اللغات واللهجات الجرمانية المختلفة مع اللغات الدارجة في مختلف أنحاء البلاد المذكورة ، كان من الطبيعي أن يؤدي الى زيادة أنواع اللغات واللهجات المنحدرة من اللاتينية زيادة كبيرة .

* * *

إن غزوات القبائل الجرمانية للبلاد المذكورة أثرت في مصير اللغة اللاتينية . من وجوه اخرى أيضا : ان هذه الغزوات أدت الى حدوث تطورات وانقلابات اجتماعية وسياسية هامة . فكان من الطبيعي أن تتأثر اللغات من هذه الانقلابات تأثراً عميقاً .

إذ من المعلوم أن الغزوات الجرمانية أدت – في آخر الامر – الى انقراض الامبراطورية الرومانية الغربية وزوالها ، كما أنها سببت تقلص الطبقة المتعلمة والمستنيرة وتلاشيها بسرعة كبيرة .

ومن الطبيعي أن زوال الوحدة السياسية من جراء سقوط الامبراطورية : قد حرم اللاتينية الكلاسيكية من السلطة المعنوية التي كانت تتمتع بها ، لكونها لغة الحكم والادارة في امبراطورية واسعة الارجاء . كما أن تلاشي الطبقة المستنيرة التي كانت تمارس اللاتينية الادبية وترعاها أدى إلى تقلّص ظل اللغة المذكورة الى أقصى حدود التقلّص ، وجعلها تنحصر بين جدران المعابد والاديرة وحدها .

ولا حاجة للبيان ان انسحاب اللاتينية الادبية من الميدان انسحاباً يكاد يكون تاماً ، على المنوال الذي سردناه آنفاً ، ترك الحبل على غارب اللغات العامية ، وفسح امامها مجالا واسعاً للتغير السريع ، والتفرع الذي لا يقف عند حد ، لعدم وجود عائق يعوقه ، وضابط يضبطه .

ان انضمام هذه العوامل الهامة الى عامل التحول والتفرع التي سردناها قبلا ، أدى بطبيعة الحال الى زيادة تباعد اللغات واللهجات الرومانية ، عن اللاتينية الاصلية زيادة كبيرة جدا .

في الواقع ان (شارلمان) الشهير ، قد سعى في القرن التاسع للميلاد الى إحياء الامبراطورية ، وتشجيع التعليم. إلا أن الامبراطورية التي كونها لم تعمر طويلا ، لانه هو بنفسه قسمها بين اولاده الثلاثة . وفتح بذلك الباب للتقسيمات المتوالية بين أحفاده العديدين . ومن المعلوم انه بعد ذلك العهد القصير ، اخذت روابط السلطات المركزية ترتخي بسرعة ، ثم نشأت النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة التي عرفت باسم (الاقطاعية) «الفيو داليتية» . فانقسمت البلاد الى عدد لا يحصى من المقاطعات الصغيرة ، وصارت تحتمي كل واحدة منها بقصر محصن ، وتتمتع باستغلال فعلي مطلق.

فلا ترتبط بالمملكة او بالامبراطورية إلا بروابط اسمية بحت ، ثم اخذت الروابط التي تصل هذه المقاطعات بعضها ببعض أيضاً ترتخي فتزول بصورة تدريجية ، الى ان اصبحت كل مقاطعة وكل مدينة منطوية على نفسها ، ومكتفية بذاتها ، ومنعزلة عن غيرها انعزالا يكاد يكون تاماً .

ومن المعلوم ان الامية تفشت في ذلك العهد تفشياً لم يسبق له مثيل فلم يبق من يعرف القراءة والكتابة حتى بين كبار اصحاب المقاطعات وطبقة الحكام والنبلاء . واصبحت الكتابة والقراءة مما يختص به جماعة من رجال الكنائس وحدهم .

ولا حاجة الى القول : ان كل ذلك أوصل تفرع اللغات واللهجات العامية الى حده الاقصى .

* * *

إن العوامل التي ذكرناها الى الآن ، كانت عوامل عامة ، تشمل جميع البلاد التي عرفت باسم (اللاتينية) . ولإتمام سلسلة هذه العوامل المتنوعة لابد لنا من أن نشير الى عامل آخر ، اختص بقسم من تلك البلاد ، دون غيرها هذا العامل الخاص هو تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية .

من المعلوم أن العرب كانوا استولوا على اسبانيا واستوطنوها ، وأسسوا فيها حضارة راقية ، استمرت مدة طويلة ، تقرب من ثمانية قرون . فكان من الطبيعي ان تؤثر اللغة العربية -خلال هذه المدة الطويلة- في اللغة الاسبانية تأثيراً كبيرا . فاقتبست الاسبانية من اللغة العربية بعض الاصوات التي لم يكن في الاسبانية ما يماثلها. كما اقتبست آلاف الكلمات العربية التي تختلف عن الكلمات اللاتينية اختلافاً جوهرياً من وجوه عديدة .

ولا حاجة الى البيان ان ذلك أدى الى زيادة الفوارق التي كانت حدثت بين الاسبانية وسائر اللغات اللاتينية زيادة كبيرة .

هذا ، ولإتمام بحث الاحداث والعوامل التي أثرت في تطور اللغة اللاتينية وتفرعها ، لابد لنا من أن نلقي نظرة عجلى على عمل الديانة المسيحية في هذا المضمار أيضاً .

لا شك في ان الديانة المسيحية ساعدت على انتشار اللغة اللاتينية في اوربا الغربية مساعدة كبيرة .

لان المركز الاوربي للديانة المذكورة كان مدينة روما نفسها : أنها تنظمت هناك ، وانتشرت من هناك ، كما أن الاناجيل التي تجمعت هناك وانتشرت من هناك الى البلاد الغربية كانت بالنصوص اللاتينية ، فكان من الطبيعي -والحالة هذه- ان ترتبط الديانة المسيحية في تلك البلاد باللغة اللاتينية ارتباطاً وثيقا ، وأن تساعد على انتشارها مساعدة كبيرة .

إلا أن الديانة المسيحية لم تلتزم بنشر اللاتينية الكلاسيكية ، بل عملت على نشر اللاتينية العامية . وذلك لانها انتشرت -في بادىء الامر- بين عوام الناس ، دون الخواص . لان الحكام كانوا يعارضونها أشد المعارضة ، حتى انهم ظلوا يضطهدون معتنقيها بشتى أساليب الاضطهاد ، مدة تزيد على ثلاثة قرون . فكان من الطبيعي أن يخاطب المبشرون الناس باللغة الدارجة بينهم ، لا باللاتينية الادبية التي كانت شبه غريبة عليهم .

ومما يجب ملاحظته في هذا الشأن أن المذهب الكاثوليكي الذي نشأ في إيطاليا ، وانتشر منها الى غرب اوربا ، كان يلقي مهمة تلاوة الكتاب المقدس على عواتق رجال الدين وحدهم . وما كان يفرض ذلك على سائر الناس بوجه من الوجوه . ولهذا السبب لم تؤثر لغة الانجيل في كلام الناس تأثيراً يذكر ، بل بقيت اللغة المذكورة كلغة خاصة برجال الدين .

حتى أن المجمع الديني الذي انعقد في مدينة (تور) سنة 814 اتخذ قراراً صريحاً في هذا الشأن ، فأوصى بـ «تفهيم كلام الله الى الناس باللغات التي درجوا عليها» .

ولذلك نستطيع ان نقول ان الكنيسة المسيحية احتفظت باللاتينية الادبية لنفسها ، ونشرت بين الناس اللاتينية العامية وحدها .

ومن المعلوم أن فكرة «وجوب تلاوة الانجيل من قبل جميع الافراد» لم تظهر الى عالم الوجود الا بعد ظهور البروتستانتية ، في القرن السادس عشر للميلاد. ولكن حتى ذلك التاريخ كانت فروع اللاتينية قد تباعدت عن أصلها كثيراً ، وكونت عدة لغات ادبية راقية جدا . كما ان اللغات الجرمانية أيضاً كانت خرجت عن اطوار البدائية ، وانتجت آثاراً أدبية هامة . ولهذا السبب نجد أن فكرة «وجوب قراءة الانجيل من قبل جميع الناس» اقترنت بفكرة «ترجمة الانجيل الى اللغات الدارجة بين الناس». وهذه الفكرة استوجبت —على الفور— ترجمة الانجيل الى الالمانية والفرنسية والانكليزية ... ولهذا السبب فقدت اللاتينية —بعد ظهور البروتستانتية— الشيء الكثير من مكانتها ، حتى بين رجال الدين أنفسهم ..

وخلاصة القول : ان الكنيسة المسيحية «حافظت» على اللاتينية الادبية ، إذ نشرتها بين رجالها ، ولكنها لم تعمل على نشرها بين الناس ، فتركت بذلك أمام اللغات و اللهجات العامية ، مجالا واسعاً للتنوع والتفرع والانتشار .

* * *

يتبين من كل ما سبق : أن سلسلة طويلة ومعقدة من الاحداث والعوامل التاريخية —السياسية والاجتماعية والفكرية— تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية الى فروع كثيرة ، وادت الى تباعد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية اخرى .

وخلال هذه الاحداث التي بدأت قبل الميلاد ، واستمرت حتى القرن الثاني عشر للميلاد— تغايرت وتخالفت اللغات الرومانية التي تكونت على أراضي كل من فرنسا وايطاليا واسبانيا ، كما أنها تشعبت الى عدد كبير من اللهجات .

وهذه اللغات واللهجات وصلت الى حدود التعدد والتنوع خلال القرون الوسطى ، من جراء تأسيس النظم الاقطاعية في مختلف أنحاء البلاد ، وتفشي الامية بين الخواص فضلا عن العوام ، وتضاؤل الاتصال بين مختلف المقاطعات ، وانطواء المدن على نفسها حول القصور المحصنة التي شيدت في كل الجهات ...

تكون اللغة الفرنسية

ولكن ... بعد عهود التفرع والتجزؤ التي استمرت بهذه الصورة مدة تزيد على عشرة قرون ، وقعت احداث سياسية واجتماعية وفكرية اخرى ، عملت عكس ما عملته الاحداث السالفة ، فأدت الى (توحد) اللغات واللهجات حول مراكز عديدة ، بصورة تدريجية .

إني لا أرى لزوماً لتتبع (تيارات التوحد) التي اخذت ترتسم في جميع البلاد اللاتينية بعد أدوار التجزؤ التي استعرضتها وشرحتها آنفاً ، بل سأكتفي بذكر ما حدث في فرنسا وحدها .

يجمع علماء اللغة على أن اللهجات الرومانية التي نشأت فوق أراضي فرنسا الحالية قد تجمعت في صنفين أساسيين : اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية ، ويسمون الاولى (لهجات الاوبل) والثانية (لهجات الاوك) . وذلك بالنسبة الى الكلمة التي تستعمل في كل منهما بمعنى (نعم) وهي (أوبل) في الشمال و (أوك) في الجنوب .

اللغة الفرنسية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت اليها لهجات (الاوبل) والبروفنسية تمثل أرقى لهجات (الاوك) والفرق بين الاثنين كبير جداً ، إذ يقول العالم اللغوي المشهور (ميه) انه يعادل الفرق الموجود بين اللغة الاسبانية واللغة الايطالية . وطبيعي ان هذا الفرق الكبير لا يترك مجالا للتخاطب والتفاهم بين أصحاب اللغتين دون دراسة خاصة أو وساطة ترجمان .

واما سبب حدوث هذا الاختلاف الكبير فيعود الى الاختلاف في (نسبة تأثير) كل من اللاتينية والجرمانية في شمال فرنسا وجنوبها .

ان اللهجة التي انحدرت منها اللغة الفرنسية كانت في بادىء الامر لهجة خاصة بالمنطقة التي تحيط بمدينة باريس الحالية .

ومن المعلوم ان المنطقة صارت مهداً للاسرة التي أسست المملكة الفرنسية . ولذلك اكتسبت لهجتها مكانة سياسية وادبية خاصة ، فأخذت تتغلب على اللهجات الاخرى تبعاً لتوسع نطاق حكم الاسرة المذكورة ...

ان تغلب وانتشار الفرنسية قد تم بسهولة نسبية في مناطق لغات الاوبل ، ولكنه تأخر كثيراً في مناطق لغات الاوك ...

ومن الغريب ان اللغة البروفنسية قد نمت وازدهرت قبل ازدهار الفرنسية ، والادب البروفنسي اشتهر قبل اشتهار الادب الفرنسي ، لان الفنانين الذين عرفوا باسم (تروبادور) كانوا ينظمون أشعارهم ويلحنونها . ويغنونها باللغة البروفنسية .

ولكن حرمان تلك البلاد من حكومة مركزية قوية ، ولا سيما تعرضها للحروب الدينية الدموية كان من العوامل التي حالت دون استمرار هذا الازدهار ...

وخلال هذه القرون العديدة كانت الفرنسية خرجت من طور (اللغة العامية) وتحولت الى لغة كتابة وادب .

ثم أخذ هذا الادب يزدهر بعد بدء عصر النهضة والانبعاث ولاسيما خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، حيث نشأ ونبغ طائفة من الادباء العظام ، الذين كتبوا وألفوا بها مجموعة كبيرة من الآثار الخالدة.

لكن .. من المؤكد -بعكس ذلك- انه في عصر الادب الكلاسيكي الزاهر ، وحتى في خلال القرن الثامن عشر ، كان معظم الفرنسيين يرطنون بلهجات كثيرة ، تختلف عن اللغة الادبية بخصائص عديدة .

حتى أن قضية اللهجات استرعت اهتمام رجال الثورة العظمى ، في اواخر القرن الثامن عشر ، وحملتهم على التفكير فيها تفكيراً جديا انتهى بهم الى اتخاذ تدابير عديدة لمعالجة مشكلتها معالجة مثمرة .

كان الراهب غريغوار قدم الى مجلس الثورة سنة 1790 تقريراً مسهباً عن حالة اللغة الفرنسية ، وكان مما قاله في التقرير :

«اننا نستطيع ان نؤكد -دون مغالاة- بأن نحو ستة ملايين من الفرنسيين -ولاسيما في الارياف- لا يعرفون شيئاً عن اللغة القومية . وعدداً لا يقل عن ذلك -اذا عرفوا شيئاً منها- فانهم لا يستطيعون أن يواصلوا التحدث بها».

هذا . ولكي نقدر دلالة هذه الارقام حق قدرها ، يجب أن نلاحظ أن مجموع سكان فرنسا في ذلك التاريخ كان نحو خمسة وعشرين مليوناً على أكبر تقدير . ويفهم من ذلك أن نصف سكان فرنسا ماكانوا يتكلمون بالفرنسية.

وفضلا عن ذلك أضاف التقرير إلى ماسبق . من العبارات : «والذين يحسنون التكلم بها بفصاحة لا يتجاوزون الثلاثة الملايين . وأما الذين يستطعون كتابتها على وجه الصحة فهم أقل من ذلك أيضاً»

(فهب مجلس الثورة لتدارك الحال واتخذ ما أمكنه من التدابير و منها أنه أصدر بياناً كان مما جاء فيه) :

«أيها المواطنون .

فليدفع كلا منكم تسابق مقدس للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا» . . لان . . «تلك اللهجات إنما هي من بقايا عهود الاقطاع والاستعباد» .

(وطفقت السلطة الفرنسية من ذلك التاريخ حتى هذا اليوم تحارب اللهجات العامية بكل الوسائل : التعليم .

الخدمة العسكرية ، وحديثاً : الصحافة ...) وغني عن البيان أن السينما والاذاعة . . انضمت إلى العوامل المذكورة أخيراً ، وصارت تساعد على تعميم اللغة الفصحى مساعدة كبيرة .

فاذا قيل لنا الآن : «لافرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة في فرنسا وجب أن نعلم علم اليقين بأن ذلك إنما تم بفضل الاحداث التي توالت منذ مدة تزيد على ثمانية قرون . ولاسيما بفضل الجهود الجدية التي بذلت — ولا تزال تبذل — والتدابير الفعالة التي اتخذت — ولاتزال تتخذ منذ بدء حملة الثورة الكبرى على اللهجات العامية .

ومع هذا كله ، يجب أن نلاحظ بأن القول أنه (لايوجد في فرنسا فرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام) لايخلو من المغالاة فان ذلك ، إذا كان صحيحاً بالنسبة إلى معظم المدن والقصبات الكبيرة ، فانه بعيد عن الصحة بالنسبة إلى كثير من القرى في بعض الأ يالات .

فانه من الثابت بأن هناك ملايين من الفرنسيين لايزالون في طور (ثنائية اللغة) ، فانهم يتكلمون في بيوتهم ولاسيما مع العجائز والجدات ، بلهجات عامية ولغات خاصه وأن كانوا يتقنون الفرنسية الفصحى ويتكلمون بها خلال اتصالاتهم الخارجية .

فاللهجات العامية في فرنسا لم تندثر تماماً وإن كانت قد تضاءلت كثيرا .

فأرى أن أشير هنا إلى بعض الامثلة التي صادفتها خلال مراجعة مصادر بحثي هذا :

فان هناك جماعات تقول j'avons عوضاً عن j'ai وذلك قياساً على قولهم : nous avons ومن يقول il ta té في مقام il a été ، ومن يلفظ كلمة rouge على شكل rouche ومن يقول remettez-vous في مقام asseyez-vous ومن يسمي الحديقة courtile عوضا عن jardin ، ومن يقول j'espère tel بمعني j'attends tel

كل هذا على الرغم من جميع الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً ، وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلت منذ أجيال عديدة .

* * *

ويتبيّن من كل ماسبق :

أن رجال الفكر والسياسة في فرنسا لم يقولوا : فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها ، بل قالوا : يجب أن نقضي على هذه اللهجات .

ورجال القلم والأدب لم يقولوا : فلنكتب باللهجات الدارجة بين الناس ، بل قالوا : لنسع إلى رفع لغة الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والادب . . .

والا . . .لما تقدمت اللغة الفرنسية تقدمها المعلوم ، ولما كتبت بها الآثار الكلاسيكية الخالدة . . . . .

ولاظهر إلى عالم الوجود شيء من الادب المعاصر الزاهر . . .

الفوارق الاساسية
بين تاريخ اللاتينية وتاريخ العربية

— 1 —

بعدما استعرضت وشرحت الاحداث والعوامل التي تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية إلى فروع كبيرة ، وعلى تبعيد هذه الفروع بعضها عن بعض من ناحية ، وعن اللاتينية الاصلية من ناحية أخرى . . .

أعتقد بأن القراء قد أدركوا على الفور الفوارق العظيمة التي ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ، من وجهة هذه العوامل والاحداث :

أ) فان اللغة العربية بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي . . . لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة ، كما تعرضت إليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد .

ب) ان البلاد العربية لم تُبتل بتفتّت سياسي واداري واقتصادي ، مثل الذي ابتليت به البـــلاد الرومانية في عصور الاقطاع الطويلة .

ج) ان الامية المطلقة لم تتفش في البلاد العربية في وقت من الاوقات بقدر ما تفشت في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

د) ان البلاد العربية لم ينعزل بعضها عن بعـــض انعزالا يشبه الانعزال الذي حصل في البـلاد الرومانية .

بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائما ، بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحيته ، وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة ، من مختلف أنحاء البلاد الى الحجاز من ناحية أخرى

ه) ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحـى التزاماً تاماً،وظلت تساندها وتؤازرهـا دون انقطاع ،ولم تتخل عنها للهجة من اللهجـات ،في وقت من الاوقات «»

ولهذه الاسباب الاساسية كلها . اختلف مصير اللغة العربية عن مصير اللاتينية اختلافاً كليا .

فان الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً قد تضافرت على إدامة حياة اللغة العربية ، في حين ان العوامل الـتي احاطت باللغة اللاتينيّة انتهت الى اقصائها عن ميـــدان الاستعمال ، وجعلها تنتقل الى عالم الاموات . بعد أن أنجبت «اللغات اللاتينية» المعلومة الآن .

— 2 —

ولإزالة جميع الشكوك التي قد تساور بعض الاذهان أرى من المفيد أن اوضح اهم الفوارق التي ذكرتها آنفاً ، بشيء من التفصيـل .

ا) لقد قلت : ان اللغة العربية — بعد أن استقرت في العالـم العربي الحالي — لم تتعـرض الى غـــزوات أخرى ، كالتي تعرضت اليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية ، واستيطانها في مختلف أنحـاء البلاد .

الواقع أن عدة اسر مالكة غير عربية استولت عـلى زمام الحكم في مختلف البلاد العربية ، في تواريخ مختلفة إلا أن حكم تلك الاسر المالكة لم يتم بفضل جماعـات كبيرة من بني قومهم ، ولم يترافق باستيطان عدد كبير من تلك الجماعات ، ولذلك لم تلبث تلك الاسر المالكة أن استعربت ، فتبنّت لغة البلاد .

ولم يشذّ عما قلناه آنفاً إلا اسرة مالكة واحدة ، لهي اسرة بني عثمان ، فانها لم تستعرب مثل سائر الاســر المالكة ، لان عاصمة ملكها كانت —وظلت— خـارج البلاد العربية . ونستطيع ان نقول : انها حكمت البـلاد العربية —وظلت تحكمها— من الخارج ، على مبعدة منها. وفضلا عن ذلك كانت لغتها ضعيفة جداً حيال العربية ، ولهذا السبب تأثرت هي بها اكثر مما أثرت فيها. فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ظل محدوداً ، على الرغم من استمرار حكمها مدة تقرب من أربعة قرون .

ولا نغالي اذا قلنا : ان تأثيرها الاساسي لم يتجـاوز كثيراً أمر تأخير نهضة الادب العربي ، من جراء عـدم وجود دولة عربية تشجع الادب ، وتهيء له وسائل التقدم والنهـوض .

* * *

ب) وقلت : إن البلاد العربية لم تُبتل بتشتّـــت وتفتّت يماثل أو يقارب ما ابتليت به البـلاد الاوربية خلال العهود الاقطاعية .

«» يضاف الى هذا كله ان الشعوب العربية تشعـر بوحدتها وتطالب بها ، على حين ان الشعـوب اللاتينيـة تشعر على العكس بقومياتها مستقلة ولا يود أي منها الاندماج مع غيره في قومية واحدة —(اللســـان العربي)—

الواقع أن البلاد العربية أيضاً فقدت «الوحدة السياسية. وانقسمت الى دول ودويلات عديدة ، إلا أن عدد هذه الدول والدويلات ظل محدوداً . ولم يصل الانقسام السياسي في العالم العربي – حتى في أسوأ عهود «ملوك الطوائف» ولو من بعيد – إلى درجة التفتت العام الذي حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة – وكل مدينة تقريباً – مستقلة ومنطوية على نفسها.

ج) وقلت : ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى كل الالتزام،ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات العامية ، في يوم من الايام .

وذلك لانها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن الى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم –كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني– بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة . فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة من الآيات القرآنية ، كل يوم خلال الصلوات الخمس .

حتى خلال الصلوات التي تؤدي بالجماعة، يترتب على كل فرد مؤتم بأحد المصلين ، أن يستمع الى ما يتلوه الإمام جهراً من ناحية ، وأن يتلو –بعد ذلك– هو بنفسه سراً آيات اخرى من ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم القرآن –قراءة وحفظاً– الى جميع الاطفال . وهذه المدارس والكتاتيب عمت جميع أنحاء البلاد ، ولم تنقطع عن العمل ، حتى في أسوأ عصور الانحطاط .

وكل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها ، ويوصلهم اليها ، على الدوام ، عن طريق السماع المستمر ، والتلاوة .

ونستطيع أن نقول : أن فكرة «التعليم العام» التي ظهرت في العالم الغربي مع ظهور البروتستانتية في القرن السادس عشر للميلاد ، كانت قد تولدت في العالم العربي منذ ظهور الاسلام ، وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية وبمقياس واسع ، منذ القرن الاول للهجرة .

ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة كبيرة . ومن المعلوم أن لغة القرآن ، هي اللغة العربية الفصحى .

* * *

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية ، هي أيضاً انتهت الى التزام العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة . كما أن البروتستان أيضاً اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية. والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة الطقوس والصلوات والمواعظ ، بعد أن تخلصت من ربقة اليونانية .

ولهذه الاسباب العديدة ظل اتصال العرب باللغة الفصحى وثيقاً ، فلم يترك مجالا لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعداً كبيرا .

والفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة –بين العامية والفصحى– لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات ، التي لا تحول دون تفاهم اصحابها ، بشيء يسير من الجهد والانتباه ..

واذا كان الناس لا يتكلمون الآن بالعربية الفصحى فانهم لا يعجزون عن فهمها ، ولو كانوا اميين .

فضلا عن ذلك اننا نلاحظ ان اللغة الفصحى صارت تزداد تأثيراً وتغلباً على اللهجات العامية شيئاً فشيئاً، منذ بدأت النهضات الفكرية والقومية في مختلف الاقطار العربية . حتى أن التقدم في هذا المضمار اصبح يظهر الى العيان –ويلمس لمس اليدين– حتى خلال عقد واحد من السنين . وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعّالة .

ان اللغة الفصحى هي الآن لغة القراءة والكتابة والدرس ، في جميع المدارس والمعاهد العربية ، التي صارت تعد بعشرات الآلاف والتي تجمع كل يوم عدة ملايين من التلاميذ والطلاب .

والجرائد اليومية تصدر في جميع الاقطار العربية باللغة الفصحى . ومن المعلوم أنها تطبع كل يوم مئات الآلاف من النسخ . تتناولها أيدي الملايين من القراء . من مختلف الطبقات .

فلا يجوز — والحالة هذه — تشبيه العربية الفصحى باللاتينية ، بوجه من الوجوه .

انها استطاعت أن تتغلب الى الآن على جميع عوامل البلبلة التي تألبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة ، فلم تفقد نسغ الحياة ، حتى في عهود حكم الاجنبي القاسي ، وعصور الاستعمار الخانق .

فلا يمكن أن تفقد حيويتها بعد الآن ، ويخطيء من يظن أنها ستقف عن النمو والازدهار في عصور النهضة وعهود الاستقلال ،و.. لاسيما.. بعد بزوغ فجر الاتحاد

انها لا تزال حية ونامية ، ولاشك في أنها ستزداد نمواً في مستقبل الايام ، وستصبح أشد حيوية مما هي الآن.....

مدخل إلى اللغويات التطبيقية

تأليف : س. پيت كوردر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

ننشر فيما يلي ترجمة الفصل الأول من كتاب

INTRODUCING APPLIED LINGUISTICS

كان هدفى من تاليف هذا الكتاب بيان الصلة بين الدراسات التى يطلق عليها ، اجمالا ، (الدراسات اللغوية) وبين عدد من المهام العملية المتصلة بتعليم اللغات . من المؤكد ان هناك نفرا من القراء يختلفون بشأن الصلة بين (الدراسات اللغوية) و (تعليم اللغات) الا انهم قد يوجهون النقد لى لتقيدى الضمنى بقصر استخدام مصطلح « اللغويات التطبيقية » على مجال النشاط هذا . على اساس انه ثمة مهام عملية اخرى خلاف تعليم اللغات لها صلة بمعرفة اللغويات. هذا ، وانا لا اختلف مع هؤلاء القراء ، من حيث المبدا، ومع ذلك اقول انه بسبب الاهتمام العام بتعليم اللغات، وبسبب التأييد الرسمى العظيم الشأن الذى انيط فى السنوات الاخيرة بالبحوث والتعليم فى تطبيق اللغويات على تعليم اللغات ، شاع هذا المصطلح وقصر استخدامه فعلا على هذا النحو .

وبالرغم من أن هذا الكتاب موجه اساسا لتدريب معلمى اللغات واولئك الذين يعدون انفسهم ليصبحوا معلمى لغات . آمل ان يلقى اهتماما من جانب علماء اللغة الذين يودون معرفة شيء ما عن استخدام ابحاثهم واساليبهم واضافاتهم وطريقة استعمالها من جانب مجموعة من المهنيين الذين تقوم اللغة بدور رئيسى فى انشطتهم . واعتقد كاحد ممحصى اللغة ان اللغويات التطبيقية يفترض فيها اولا ان تكون « لغويات » . بمعنى ان المرء لا يستطيع استخدام ما لا يملكه . وعلى هذا ، فان القارىء الملم باللغويات فعلا سيجد أن القسمين الاولين يحتويان على مادة مألوفة ، الى حد كبير ، بالرغم من ان تاكيدى نسبيا على الفروع المختلفة لدراسة اللغويات يعكس اهتمامها بتعلم اللغات اكثر مما يعكس درجة الاكتفاء النظرى التى حققتها تلك الفروع . اما بالنسبة لمن لم يتلقوا تدريبا ما على اللغويات . فان القسمين الآنفى الذكر يزودانهم بنظرة عامة شاملة او « بعرض » لما تتناوله اللغويات ، كما تراها عين عالم اللغة التطبيقى ، اكثر من تزويدهم بمقدمة شكلية للموضوع ، فاذا كان العرض الذى قدمته يثير اهتمامهم ، فثمة مداخل ممتازة عديدة للموضوع لهم أن يرجعوا اليها .

مقدمة :

تعليم اللغات : فن وعلم .

غالبا ما يقال ان تعليم اللغات فن ، فاذا كان

المقصود بهذا القول هو أن تعليم اللغات نشاط ينطوى على مهارة فائقة تكتسب بالملاحظة الثابهة والممارسة المتأنية ، فهى ملاحظة لا طائل من ورائها . ولكن الذى يكمن وراء هذا القول الجزم هو أن العلم والفن مطلقان بالتبادل ، ومن ثم لا يمكن للعلم أن يؤدى أى دور فى تعليم اللغات · هذا ، ونحن نسمى النشاط العملى الخاص فنا حين لا يمكن تنفيذه بنجاح باتباع مجموعة من القواعد المتاحة ، وحين تكون معرفتنا بكافة العوامل التى ينطوى عليها هذا النشاط ناقصة، يجب ، نتيجة لذلك ، ترك القرارات الخاصة بكيفية المضى قدما لمعرفة ممارس النشاط وخبرته . وتعليم اللغات عبارة عن نشاط من هذا القبيل ، فهو ينطوى على عدة اعتبارات مختلفة أو ، اذا استخدمنا المصطلح الفنى ، « متغيرات » ، لا يمكن تقييم أو قياس اهميتها النسبية وقيمتها حتى لو كنا على علم بها جميعا ، ولهذا السبب لا يمكن حساب عملية تعليم اللغات باستخدام الحاسب الالكترونى اذ يتعذر وضع نموذج رياضى لها ، أو اخضاعها لمجموعة من الاجراءات النظامية المرتبطة بطريقة منطقية ، أو للوغاريتم ، ولكن لما كانت كافة هذه المتغيرات غير معروفة أو يمكن تحديدها من حيث الكم أو السيطرة عليها ، فان ذلك لا يعنى تطبيق هذه الخصائص على اى منها · فمثلا ثمة جملة من العوامل التى يجب وضعها فى الاعتبار فى اية عملية تعليمية وهى : قدرات التلاميذ واستعداداتهم الفطرية وقدراتهم الذهنية ، ومواقفهم أو دوافعهم ازاء عملية التعلم ، وكلها امور محصها علماء النفس التربويون، ويمكن على الاقل وصف وقياس وضبط بعض سماتها ·

ولكن ثمة مجموعة هائلة من المعارف المتاحة عن طبيعة اللغة البشرية وعن كيفية تعلمها ، وعن الدور الذى تؤديه اللغة فى حياة الفرد والمجتمع ، فهناك البحث العلمى الذى يتولاه المعنيون بدراسة مسائل اللغة البشرية كما يتولاه علماء اللغة ، والذى يجب ان يكون ذا تأثير ما على بعض المسائل التى تنشأ عند تخطيط برنامج تعليم اللغة وتنفيذه · وتوفر اللغويات مجموعة متزايدة من المعارف العلمية حول اللغة ، وهذه المعارف بمثابة الموجه لنشاط معلم اللغة · ويتلخص موضوع هذا الكتاب فى كيفية الاستفادة من هذه المعارف بأكبر قدر مستطاع ·

اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات :

ليس هذا كتابا خاصا بتعليم اللغات ، وهو ليس دليلا تعليميا عن كيفية تدريس اللغة ، اذ ثمة كثير من الكتب التى يعول عليها أو التى لا يعتد بها والتى تتسم بالتضليل فى هذا الموضوع · أما كتابنا هذا فيدور حول مساهمة اضافات واساليب المعنيين بدراسة اللغة بطريقة علمية من قبيل عالم اللغة والعالم النفسى وعالم اللغة الاجتماعى (هذا ، اذا اقتصرنا على ذكر أهم الفئات) ، الذين يمكنهم ايجاد الحلول لبعض المشكلات التى تنشأ فى دور تخطيط وتنظيم وتنفيذ برامج تعليم اللغات ، انه كتاب عن اللغويات التطبيقية ·

وهناك بالطبع فائدة من النظريات الخاصة بطبيعة اللغة البشرية لاناس آخرين بالاضافة الى كونها مفيدة لمعلم اللغات ، وانه لمن الخطأ أن نربط ربطا مطلقا بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فثمة اناس آخرون يضطلعون بانشطة عملية تلعب فيها اللغة دورا رئيسيا ، ومن ثم فمعرفتهم بطبيعتها مفيدة عند معالجة المشاكل التى تنشأ عن عملهم ، وتضم تلك الفئة من الناس ، على سبيل المثال ، اخصائى علاج عيوب الحديث ، والناقد الادبى ، ومهندس المواصلات السلكية واللاسلكية · هذا ، ونحن لا نربط بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فهما نشاطان مختلفان ولا يمثل أحدهما الآخر ، فتطبيق المعرفة بعلم اللغويات على شىء ما — او اللغويات التطبيقية كما يدل عليها اسمها — يعد نشاطا فى حد ذاته ، وهى ليست دراسة نظرية ، بل انها تستفيد مما توصلت اليه الدراسات النظرية ، ويعد العالم اللغوى بمثابة المستخدم للنظريات لا مؤسسها ، واذا ما استخدمنا المصطلح « نظرية » كما يستخدم فى العلم ؛ فليس هناك شىء من قبيل « نظرية تعليم اللغات » أو « نظرية علاج عيوب الحديث » او « نظرية النقد الادبى » · وتعليم اللغات كذلك نشاط فى حد ذاته ، غير أن تعليم اللغات ليس هو نفس نشاط اللغويات التطبيقية ، ومع ذلك اذا فسرنا تعليم اللغات بأوسع ما يحمله المعنى بحيث يشتمل على كافة عمليات التخطيط واتخاذ القرارات التى تتم خارج حجرة الدراسة ، كان من الممكن وجود عنصر اللغويات التطبيقية فى عملية

تعليم اللغات برمتها ، تماما كما أن هناك عنصر اللغويات التطبيقية فى عملية علاج عيوب الحديث أو النقد الادبى برمتهما .

اذن فهذا كتاب عن اللغويات التطبيقية فى تعليم اللغات ، كتاب عن تلك الاجزاء الاجمالية من عملية تعليم اللغات التى يتم بها اتخاذ القرارات على ضوء طبيعة اللغة البشرية ، وكيفية تعلمها ، ودورها فى المجتمع · ويعالج الكتاب أجزاء العملية التى تتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجى القائم على المعرفة المكتسبة بالاسلوب العلمى .

وبالرغم من مئات السنين التى تمت خلالها دراسة اللغات فى الحضارات المختلفة ، ما زلنا لا نعلم سوى القليل عن سماتها · هذا ، وكانت خطى البحث أسرع فى السنوات الاخيرة ، وأصبحت أساليبه أكثر دقة الى الحد الذى يمكننا معه الآن أن نزعم ، ولنا بعض التبرير وفى حدود معينة ، أن الدراسات اللغوية تقوم على العلم ، ولهذا قلت ان اللغويات التطبيقية تعالج ذلك الجزء من تعليم اللغات الذى يتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجى الدقيق، غير اننا ما زلنا بعيدين كثيرا عن ذلك الترتيب المنهجى ، كما سيتضح فى الفصول التالية من الكتاب ، ولهذا السبب لا يمكن للغويات ، حتى الآن ، أن تعطى سوى اجابات محددة قليلة لمسائل تعليم اللغات ، اذ ان عمر اللغويات التطبيقية ، كمجال للدراسة ، لا يزيد على مدة العشرين عاما ، وللقارىء نفسه أن يحكم على مدى ما تم انجازه فى تلك الفترة .

عملية تعليم اللغات :

اشرت فى القسم الاخير الى « العملية الاجمالية لتعليم اللغات » وقد فعلت ذلك لان المصطلح « تعليم » مبهم المعنى الى حد كبير ، فهو غالبا ما يشير الى نشاط المعلم فى حجرة الدراسة والى تفاعله مع تلاميذه ، غير أن المعلمين يعرفون أن ذلك يمثل نقطة النهاية فى نشاط يستنفد الوقت ، والتخطيط ، والاعداد التفصيلى، والتصويب ، وتقييم النشاط ، وكلها أمور لها أهميتها حقا وتعد جزءا لا غنى عنه فى عملهم ، الا أن ما لا يعترف به المعلمون عن طيب نفس دائما هو اعتمادهم على عمل الآخرين الذين يسهمون فيما يجرى فى حجرة الدراسة والى حد ما ، يقررون ما يجرى فيها ، فالمعلمون يستخدمون الكتب المقررة والادوات والمعينات البصرية وغيرها من معينات ، ويعملون وفقا لمنهج وجدول زمنى، وغالبا ما يقدمون تلاميذهم للامتحانات أو الاختبارات التى يقوم اناس آخرون باعدادها · وفى أغلب الاحيان ينعدم الدور الذى يؤدونه فى هذه المواد والخطط أو يتسم ذلك الدور بالبساطة ، الا أن هذه المواد والخطط تسهم أو حتى تتحكم ، الى حد ما ، فيما يدور فى حجرة الدراسة ، ومن ثم فانى أضمن عملية التعليم الاجمالية كل ما يتعلق بالتخطيط واتخاذ القرارات مهما كان مستوى تأثيرها المباشر أو غير المباشر على ما يجرى فى حجرة الدراسة · واذا اعتبرنا أن دور المعلم يكمن فى تهيئة الظروف التى يمكن لعملية التعلم أن تتم فيها على خير وجه ، وعلى هذا فكل القرارات التى تؤثر فى هذا الهدف تعد كجزء من عملية التعليم الكلية ، وتتخذ بعض هذه القرارات على الاقل فى ضوء فهمنا الحالى لطبيعة اللغات .

تتخذ القرارات وتوضع الخطط على مستويات مختلفة ، ففى المستوى الاعلى تكون القرارات سياسية اذ تقوم الحكومات والوزارت باتخاذها ، والقرارات على هذا المستوى تكون ذات طبيعة عامة من ناحية الاتفاق على تدريس اللغات ، وأى اللغات تدرس ، وما المبالغ التى يجب رصدها لتدريب المعلمين ودفع رواتبهم · وقد يظن المرء أن ليس لعلماء اللغة ما يسهمون به فى هذا الشأن غير أنه من المؤكد أن تلك هى الحال فى معظم البلدان الاوروبية ، أما فى الدول المتعددة اللغات فى افريقيا وآسيا فان القرارات المتعلقة بأى اللغات تدرس وفى اى مستوى من نظام التعليم يجب تدريسها — تعد قرارات صعبة ، تتخذ فعلا ، والى حد ما ، على اساس دراسات يجريها علماء اللغة الاجتماعيون من حيث توزيع اللغات المختلفة فى المجتمع ، ووظائفها المختلفة ، والدور الذى تؤديه هذه اللغات فى الحياة السياسية والتجارية فى المجتمع ، وفى اتصالاتها بالعالم الخارجى ، هو أحد مجالات الدراسات اللغوية التى تعرف أحيانا « بالتخطيط اللغوى » .

وبعد اتخاذ مثل هذه القرارات السياسية ، اساسا ، ثمة ناحية اخرى من التخطيط واتخاذ القرارات تقوم على اعتبارات اقتصادية وادارية واجتماعية فى نطاق الدولة ، من قبيل ذلك طول فترة تعليم لغات معينة ، والاهداف من تعليمها ، ومن يتعلمها · وقد تحتل مثل هذه القرارات مكانة أدنى فى تسلسل السلطة ، وغالبا ما تتسم تلك القرارات

بالاقليمية وتعتمد أحيانا على البنية الادارية لنظام التعليم فى المدرسة ذاتها ، وهنا لعالم اللغة الاجتماعى دور يؤديه ·

ويمكننا مما تصنيف جميع القرارات الاساسية المتعلقة بتحديد أهداف تعلم اللغة وتوفير الوسائل اللازمة لذلك على قمة التسلسل الهرمى لبنية العملية الاجمالية لتعليم اللغات ، أما المستوى الثانى فيتعلق بتنفيذ هذه القرارات بصفة عامة ، بالاضافة الى مشكلات ما يجب تدريسه وكيفية تنظيمه ، هذا ما يدور حوله موضوع هذا الكتاب اذ أن عند هذا المستوى تكون مساهمة اللغويات فى تعليم اللغات فعالة بصفة أساسية · وللغويات التطبيقية صلة باستنباط المناهج والمواد لتنفيذ مرام سلطات التعليم سواء على المستوى المحلى أو القومى · وتتصل المناهج بلغات معينة يجب تدريسها لمجموعات معينة من الدارسين ، الى حد ما ، لاهداف محددة فى حدود يعينها من حيث الوقت والتكاليف ، وتعد الكتب المقررة ومواد التدريس بكافة أنواعها هى التحقيق المادى الملموس لخطة المناهج ·

أما المستوى الثالث الذى تتخذ عنده قرارات تعليم اللغات فيتمثل فى حجرة الدراسة ، ومن الواضح أن المساهمة اللغوية عند هذا المستوى مساهمة نفسانية ، وتتعلق بكيفية تعلم الافراد اللغات الاجنبية، غير أن الاعتبارات الاخرى تمثل دورا آخر : المبادىء التربوية العامة المتعلقة بالدوافع والمواقف والذكاء والاستعداد الشخصى ، وهذه الاعتبارات بعيدة عن كونها اعتبارات لغوية ، ولها أهميتها فى تدريس المواد كما هو شأنها فى تدريس اللغات .. فأولئك الذين يخططون عند المستوى الثانى لا تتوفر لديهم المعلومات التفصيلية المتاحة لمعلم الفصل ، ويمكنهم الاهتمام بهذه المتغيرات بطريقة عامة تماما ، فالمرء لا يصادف مناهج او مواد تعليمية معدة ، بصفة خاصة ، للتلاميذ الاذكياء اللامبالين فى الثانية عشرة من عمرهم !

كان التقليد السائد ان يعهد بعملية اعداد المناهج والمواد والكتب المقررة لتعليم اللغات الى المعلمين من ذوى الخبرة ، وما زال هذا التقليد متبعا الى حد كبير ، أما فى وقتنا الحاضر فان هذا الاجراء يتم ، كمجهود تعاونى كما هو الحال بالنسبة لتطوير المقررات فى المجالات الاخرى ، فيعمل المعلمون ذوو الخبرة من خلاله مع المتخصصين فى موضوع البحث (وغالبا ما يكون المتخصصون من المعلمين ذوى الدربة) ، وفى هذه الحالة يمثل المتخصصون ما اسميهم بعلماء اللغة التطبيقيين ·

هذا ويمكننا تلخيص محتوى القسمين السابقين فى الجدول التالى :

جدول رقم 1 : التسلسل الهرمى لوظائف التخطيط فى العملية الاجمالية لتعليم اللغات

المستوى الاول	سياسى	الحكومة	هل يتم تعليم اللغات ؟ اى لغات نعلم ومن الذى يتعلمها ؟
المستوى الثانى	لغوى ولغوى اجتماعى	اللغوى التطبيقى	الذى يجب تدريسه ؟ ومتى ، وما قدر ما يتم تدريسه ؟
المستوى الثالث	لغوى نفسانى وتربوى	معلم الفصل	كيفية التدريس

النجاح فى تعليم اللغات :

يعد عالم اللغة التطبيقى مساهما فى عملية تعليم اللغات برمتها ، وهو لا يتحكم فيها ، كما لا يتحكم فيها معلم الفصل ، كذلك ناظر المدرسة ووزير التربية لا يتحكمان فى هذه القضية ، اذ أن عملية تعليم اللغات عبارة عن مشروع تعاونى ، وكلما زاد فهم كل مساهم فيه للمبادىء التى يتم بموجبها اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، زادت فرص نجاح العملية برمتها ، ولكن علينا أن نتوقع طوال الوقت وجوب ايجاد حلول وسط ، فمثلا قد يقترح عالم اللغة النفسانى وجود سن امثل لبدء دراسة اللغات الاجنبية ، وقد تشير الاعتبارات السياسية والاقتصادية الى أنه من غير

المستحب ، نتيجة لتحليل عوامل الكلفة والربح ، رصد الاموال اللازمة لتوفير معلمين مؤهلين عند ذلك المستوى · وهنا يتصارع المبدآن ، وتمثل الخطة النهائية نوعا من الحل الوسط · هذا ويشترك كل المساهمين فى العملية الاجمالية لتعليم اللغات فى انجاحها ، المجتمع ممثلا فى سلطات التعليم ، وعالم اللغة التطبيقى ومعلم الفصل · غير أن الصعوبة ، كما هو الحال فى جميع العمليات التعليمية ، تكمن فى تعريف معنى « النجاح » ، فالمجتمع قد يعرفه بمفهوم التكامل الاجتماعى ، أو العائد التجارى ، أو بأحد مفاهيم الانسان المتعلم ، أما المعلم فقد يعرفه بمفهوم الانجاز الاكاديمى أو « تحقيق الفرد لذاته » ، بينما قد يعرفه العالم اللغوى من حيث اكتساب بعض مهارات الاداء اللغوية التى يمكن قياسها · غير أن الافراد هم الذين يتعلمون اللغات لاسباب عديدة ومختلفة ، اما لانهم يجدون متعة فى ذلك ، او لان تعلم اللغات نافع فى تقدمهم الاكاديمى ، او فى مسالكهم المعيشية ، أو لانه يفتح أمامهم فرصا للاحتكاك والثراء الاجتماعى والثقافى · وهم لا يبحثون أو يحتاجون ، بالضرورة ، الى نفس مستوى القدرة على الاداء أو حتى نفس مجموعة المهارات اللغوية ، فما يعد نجاحا لاحدهم قد يكون فشلا لسواه ، فطالب العلم ، كفرد ، يهتم بالنجاح وفقا لمفهومه الخاص به ·

ويحتاج المرء الى مقياس ما أو الى جهاز معين لقياس النجاح ، ولكن لم يتقدم أى انسان حتى الآن باقتراح وسيلة لقياس النجاح فى تعلم اللغات ، بمفهوم المجتمع ، سواء المفهوم الثقافى ، أو الاجتماعى أو التجارى · أما من حيث تحديد أهداف المعلم والمتعلم وعالم اللغة التطبيقى فى مجال اللغة من قبيل المهارات والمعارف المحددة ، فيمكن استنباط وسيلة ما لقياس تلك المهارات والمعارف ، ويمكننا بوجه عام قياس ما يمكننا وصفه ، وتعطينا اللغويات اطارا لوصف ما نقصده بالمهارات والمعارف فى لغة ما ، ومن ثم تجعل فى استطاعتنا ، من حيث المبدأ ، القول أن اسلوبا واحدا للتعليم أو مجموعة من مواد التعليم أنجع من غيرها لتحقيق هدف معين مع مجموعة معينة من الدارسين · هذا ، ولا يمكن تحقيق تحسن منتظم فى تعليم اللغات من غير الالمام باللغات ، الما تزودنا به اللغات نفسها ·

الجزء الاول

اللغات وتعلمها

الفصل الاول

آراء فى اللغة

ماهية اللغة :

ان القرارات التى نتخذها بوعى وبلا وعى ، عند القيام بتنفيذ مهمة عملية ما تتأثر بالآراء التى نتقبلها بشأن طبيعة الشىء الذى نعالجه ، ولكل امرىء ما نسميه « بالنظرية اللارسمية » عن اللغة واذا كان من معلمى لغة ما فله نظرية لا رسمية خاصة عن كيفية تعلم تلك اللغة ، وتوصف النظرية بانها غير رسمية لانها ليست قاطعة اى انه لا يعبر عنها بصيغة منطقية دقيقة — ونتيجة لذلك فقد تحتوى على مفارقات وتناقضات كامنة ، وهى ، بهذا المعنى ، لا تتسم بالعلمية · ربما كان من الادق أن نقول ان كل امرىء يؤمن بعدة نظريات غير رسمية عن اللغة ، ويكون جزء من النظرية تناقضا مع اجزاء نظرية اخرى، فاللغة شىء جد معقد ، ولا يمكن لاى فرد ان يجد لها تعليلا مرضيا تماما فى نطاق نظرية شاملة متكاملة · هذا ومن المؤكد أن علماء اللغة قد وجدوها كذلك ، ولهذا السبب فحين يوجه الى أحد علماء اللغة سؤال : ما هى اللغة ؟ فمن المحتمل أن يجيب بسؤال آخر : ولماذا تود أن تعرف ؟ فاذا كنا نقوم بتعليم اللغات فان اسلوبنا فى اداء تلك المهمة يتأثر أو يتحدد وفقا لاعتقادنا فى ماهية اللغة ، وللنظرية المعينة غير الرسمية أو النظريات التى نؤمن بها بخصوص اللغة والتى تبدو وثيقة الصلة بالمشكلة المعينة التى تواجهنا ·

وبصفة عامة ، ثمة علاقة وثيقة بين الاسلوب الذى نتبعه فى الحديث عن شىء ما وبين اسلوبنا فى النظر الى ذلك الشىء ، فاللغة التى نستخدمها حياله تخدع آراءنا عن ماهيته . اذا اردنا معرفة آراء امرىء ما فى اللغة ، فيجب ان نستمع الى اللغة التى يستخدمها فى الحديث عنها ، فاذا فعلنا ذلك فسرعان ما نلاحظ انه يبدو أن الافراد يؤمنون بوجهات نظر متنافرة حول طبيعة اللغة ، فمثلا ، نسمع الناس عادة يتحدثون عن « استخدام اللغة » : « لقد استخدم لغة مروعة ، انه استعمل لفظة لم افهمها ، ما فائدة

اللغة الفرنسية ؟ » وهذا يوحى بأن اللغة عبارة عن شيء يشبه الاداة التى يمكننا التقاطها ، واستخدامها فى غرض ما ثم تركها ثانية ، بل أحيانا يطلق الافراد على اللغة لفظة أداة ، كما اننا نتحدث عن « حيازة » الناس للغة . فمثلا كتب جونسون ان شكسبير كان لديه « قليل من اللغة اللاتينية وقدر اقل من اللغة اليونانية » ، ويقال ان الاطفال « يكتسبون » اللغة . ويبدو اننا احيانا « نفقد » اللغة : « لا استطيع ان أجد الكلمة المناسبة » . والآن ، اذا اعتبرنا اللغة سلوكا من نوع معين فحسب ، فان ذلك يعد اسلوبا غريبا للتحدث عنها ، وهل نستطيع ان نتحدث عن « المشى » بنفس الطريقة ، هل نستطيع القول باننا « نستخدم المشى للتوجه الى جهة ما ؟ او « نحصل » او « نحوز » او « نفقد » المشى ؟

غالبا ما يتحدث علماء اللغة ، بصفة خاصة ، عن كيفية « عمل » اللغة ، كما لو كانت اللغة اداة تشبه الساعة المنبهة التى يمكن فهم تشغيلها عن طريق دراسة بنيتها الداخلية من تروس ومسننات . ومن المهم هنا انه بينما تدلنا دراسة البنية الداخلية للساعة عن كيفية عملها ، فانها لا تدلنا عن الغرض من استخدام الساعات ، ومن الواضح ان الفكرة الخاصية بالبنية الداخلية تكمن وراء العبارات من قبيل « هذه الجملة ذات تركيب معقد » او عبارة « دراسة تركيب جديد » فى مجال التعليم . وبالرغم من اننا عادة ما نفكر فى الآليات من حيث كونها اشياء لا حياة فيها ، فاننا كثيرا ما نشير الى اللغة ككائن حى ، فنحن نتحدث عن « ميلاد » لغة ، وعن «نموها» و « تطورها » و « تدهورها » . هذا ، وللغات فترات من « الازدهار » و « الازهار » (ودائما تكون هذه الفترات فى الماضى) ، وتنسب اللغات احداها الى الاخرى فى « عائلات » او « تتولد الواحدة من الاخرى » ، وهى توصف بانها اما « حية » او « ميتة » كما ان للغات صفات مادية ومعنوية فهى « جميلة » او « قبيحة » او « سوقية » او « منحطة » او « متدهورة » .

ولست جادا حين أقول ان الناس يعتقدون حقا ان اللغة عبارة عن شيء مادى يمكن تداوله كأية أداة ، فقد استخدمت تلك الاساليب للتحدث عن اللغة من قبيل الاستعارة ، وانه لمن الشائق ان نلجأ الى الاستعارة للتحدث عن اللغة ، وتشترك كل الاستعارات فى ذلك بالرغم من انها جميعا تتعامل مع اللغة «كشيء» الا انها تسبغ على اللغة صفة المادية .

كذلك نجد الناس يتحدثون عن اللغة « كحادث »، فيقولون ان محادثة « وقعت » ، وان الكلمات «تحل» فى مناقشة ، بل اننا احيانا نتحدث عن خطاب القاه شخص ما على انه « حادث المساء » .

ان اللغة شيء ما « نعرفه » ، ونحن نسأل المرء عما اذا كان « يعرف » الفرنسية او الالمانية ، او عما اذا كان « يعرف » كلمة او اخرى . واللغة ايضا شيء « نفعله » ، فنحن نكتب ، ونقرأ ، ونتحدث بطريقة حسنة او رديئة . ونحن فى هذه الحالة نعامل اللغة ، كسلوك ، يتطلب مهارة وحذقا ، علينا ان نتعلمه ، وهو سلوك يتحسن عن طريق الممارسة .

وتكشف الالفاظ التى نستخدمها فى حديثنا عن اللغة وعن مجموعة مختلفة من اساليب النظر اليها والتى وان كنا نعترف بانها اساليب استعارية فى الغالب ، فهى تدل على تباين منطقى معين . والمشكلة لا تكمن فى اى من تلك الاساليب « صحيح » . فجميعها صحيحة فى سياقها ، الا انها لا تتسم واحدة منها بالتمام او الشمول . وما علينا الا ان نعترف بأن اللغة ظاهرة معقدة لا يمكن لوجهة نظر واحدة ان تحيط بها . والسؤال الذى يجب ان نوجهه حقا لا ينبغى ان يكون عن اى الآراء « صحيح » بل اى منها « نافع » ، واى منها « مناسب » لتعليم اللغات . هل يمكننا القول بأن معلم اللغة يمكنه تجاهل اى من المعالجات لقضية اللغة من قبيل المعرفة او السلوك او المهارة او الحادثة او الشيء .

مشكلة « البعد النفسى » :

كما سبق ان اشار العلماء دائما ان دراسة لغة ما — كما هو الحال بالنسبة لدراسة اية صفة مميزة للانسان والمجتمع — تكتنفها صعوبة منشؤها ان هذه الدراسة او تلك تتعرض لشيء مألوف تماما ، فكل فرد « يعرف » عن اللغة ، لان الجميع يستخدمونها فى كل وقت ، وكل فرد « يعرف » عن المجتمع وعن السلوك الاجتماعى ، لان الجميع اعضاء فى المجتمع ، وهذا امر «طبيعى» على وجه ما، هذا ،والتناقض بين

ما نعرفه عن بيئتنا الطبيعية وبين تكوينها واعمالها لافت للنظر حقا ، بل ان الحقائق الطبيعية البسيطة للغاية مثل القوانين التى تحكم تأرجح المياد (البندول) او تسارع الاجسام الساقطة لا يمكن توقعها ، واكثر من هذا انها تتعارض وصدق الحدس ، يقابل ذلك تماما الحقائق « الاولية » عن المجتمع او اللغة التى تصبح واضحة جلية متى تمت الاشارة اليها · اذا فصعوبة دراسة السلوك الاجتماعى للانسان ، بما فى ذلك لغته ، لا تتمثل كثيرا فى التوصل الى البيانات — لان الكثير منها متوفر لدينا ، الى حد ما — ولكن الصعوبة تتمثل فى اخراجها من داخلنا ، وفى فصلها عن انفسنا بغية التوصل الى وجهة نظر موضوعية ،او اذا استخدمنامصطلحكوموسكى (1968) Chomsky (1) لتحقيق « البعد النفسى » مما ندرسه · ان المعرفة العلمية معرفة عامة ، وهى موضوعية من حيث انها مفتوحة للتمعن والتمحيص والمعارضة من قبل اى فرد يعرف كيفية الشروع فى ذلك · والعالم اللغوى ، فى دراسته للغة ما ، انما يحاول الوصول الى هذا البعد النفسى ، ومن ثم فانه يجعل اللغة « موضوعية » او يسبغ عليها صفة المادية ويساعده فى ذلك ان كثيرا من الدراسة التقليدية للغة يعنى باللغات « الميتة » وبياناته عبارة عن « نصوص » · والتوصل الى « البعد النفسى » ، فى هذه الحالة ، امر اكثر سهولة ويسرا لان المراقب لم يكن يدرس بطريقة مباشرة سلوكه او سلوك المجتمع الذى ما زال قائما ، ويمكنه بكل سهولة ان يفصل فصلا تاما بين دراسة اللغة ودراسة الشعب الذى كان يتحدث بها ثقافته . فى واقع الامر كان السبب وراء دراسة لغة ما دائما هو ان تلك اللغة اصبحت شيئا غريبا وغير مفهوم ، نشأت عن الحاجة الى شرح نصوص ادبية او دينية قديمة او تقليدية ، الا ان العالم اللغوى كان على وعى بما يفعله حين يتبنى وجهة النظر هذه ، وذلك لا يعنى اعتقاده بأن اللغة عبارة عن « شىء » ، او ان للغة حقيقة موضوعية كتلك التى للمياد (للبندول) او للجسم الصلب الساقط.

ومع هذا فالوصول الى ذلك « البعد النفسى » سهل على اية حال ، وليس ذلك مقصورا على علماء اللغة وحدهم ، فمنهم من يصدر بيانات او يفترض افتراضات لا تقوم على الدراسة الموضوعية ، بل على المعرفة « الخاصة » الحدسية ، شأنهم فى ذلك شأن معلمى اللغات ، فكثيرا ما يقول معلم اللغة ان هذه الكلمة او تلك لا تستخدم « بتاتا » فى سياق بعينه ، فهل اسس تصريحه هذا على بحثه الموضوعى ام على بحث شخص غيره ؟ ان مثل هذه البديهيات الخاصة يمكن ان تلقى تعبيرا بصورة حتمية من قبل شخص غير واع ، وقد تكون بمثابة احكام لها قيمتها ، وحين يؤكد شخص معين ان « الناس لا يقولون ذلك » ، فهل هذا التصريح عن حقيقة يمكن التدليل على صحتها ؟ وهل هى حقا من قبيل الاحكام ذات القيمة ؟ هل هذا يعنى ، حقا ، انه من غير المقبول ، من الناحية الاجتماعية ، قول ذلك ؟ وهنا ايضا يمكننا ان نسأل : هل قام هذا التصريح على الفحص الموضوعى لما يفعله اصحاب اللغة الاصليون ، ولا يجدونه مقبولا فى موقف معين ، او هل ذلك يمثل الحكم الخاص للمعلم او للعالم اللغوى ؟ او انه يمثل اهواء وآراء طبقته او فئته الاجتماعية ؟ هذا ، ومن الممكن دراسة المواقف الاجتماعية ازاء اللغة بطريقة علمية ، فتلك المواقف كما سماها بلومفيلد (1944) Bloomfield (2) « استجابات من المرتبة الثالثة » للغة ، وكانت هذه المواقف موضوعا لدراسة اجراها ميتنز (1970) (3) Mittins

ولكن اذا قال شخص ما « تلك (النبذة من اللغة) ليست صحيحة » ، فلسنا دائما متأكدين مما اذا كان يصدر حكما ذا قيمة — مؤكدين بذلك ان الصيغة موضوع البحث لم تكن موافقة لبعض « المعلمين » لاستخدام اللغة والمجتمع من الناحية الاجتماعية (مثل نفى النفى غير صحيح) ، الذى كثيرا ما يستخدم فى نقض العهود ، او سياق حقيقة مرعية ، بحيث لا ينطق اى متحدث باللغة بمثل هذه المجموعة المتعاقبة من الكلمات (مثل : هذه — قصتى — رجل) ، وسنقوم بمناقشة هذه المشكلة فى الفصل الثانى .

(1) Chomsky N. (1968) Language and Mind, Harcourt, Brace and World
(2) Bloomfield, L. (1944), Secondary and Tertiary responses to language', Language, n. 20 pp. 45 - 55
(3) Mittins, W.H. (1970), "Attitudes to English Usage", Language and Language Learning, n. 30 OUP.

اللغـــة والفـــرد :

ان الطريقة الاولى التى يمكن لنا معالجة اللغة من خلالها هى كون اللغة ظاهرة يختص بها الانسان الفرد ، وتعنى هذه الطريقة بوصف وشرح اللغة على اساس انها امر يتعلق بالسلوك البشرى ، فالناس يتحدثون ويكتبون ، ومن الواضح كذلك انهم يقراون ويفهمـــون مـــا يسمعـــــون وهـــم لا يـــولـــدون ، فاعليـــن ذلـــك ، بـــل عليهـــم أن يكتسبـــوا تلـــك المهـــارات ، ويبـــدو أن جميـــع الافراد لا ينمون تلك المهارات بنفس الدرجة ، اذ قد يصاب الافراد فى حوادث او يعانون من أمراض تجعل اداءهم عاجزا ، وهكذا تعتبر اللغة جزءا من نفسانية البشر ، نوعا معينا من السلوك ، سلوكا تتركز وظيفته الـــرئيسيـــة علـــى التخـــاطب ·

وتتمثل البلبلة التى يسببها مصطلح « سلوك » فى انه دائما يفهم ، الى حد ما ، على انه اشارة الى الحركات والتصرفات المادية الصريحة والتى يمكـــن وصفها ، الا ان جزءا من السلوك اللغوى الخاص يفهم اللغة المكتوبة او المنطوقة . على سبيل المثـــال ، ينطوى على قليل من الاشارات المادية التى يمكـــن ملاحظتها او لا ينطوى على مثل تلك الاشارات اطلاقا . وفى الواقع يمكننا احيانا أن نستنتج أن الفهم قد تم عن طريق التغيرات التى تحدث فى سلـــوك الفـــرد الآخر ، فعندما يحظر على شخص اتيـــان تصرف ما ، فاننا نستنتج انه فهم ذلك الحظر من خلال ملاحظتنا انه لا يتصرف على ذلك النحو ابدا ، وبالطبع لا يمكننا التأكد تماما من أن سلوكه التالى يعد نتيجة لفهمه · فقد يكون منشأ ذلك السلوك فقدان الاهتمام او الميل وعلى هذا ، ينبغى أن يفهم السلوك على انه يتضمن نشاطا غير ملحـــوظ ، غالبا مـــا يستنتـــج من سلوك ملحوظ آخر فحسب ·

فاذا ما اعترفنا بأن دراسة السلوك اللغـــوى تتضمن وصف وتفسير أمور لا يمكن ملاحظتها ، اصبح الموقف اكثر تعقيدا ، اذ علينا أن نفترض جدلا وجود مجموعة من العمليات ، وآلية داخلية تعمـــل حين نتحدث ونفهم ، يجب أن نفترض وجود شىء ما يسمى العقل · ومن وجهة النظر هذه يمكن اعتبار دراسة اللغات على انها دراسة للخواص والعمليات والحالات المحددة للعقل الذى تعد مظاهره الخارجية سلـــوكا يمكن ملاحظته ، ما الذى ينبغى علينا « معرفته » حتى نتصرف وفقا لعلم اللغات ؟ وكما قـــال كوموسكـــى Chomsky (1968) (1) أن ما يحاول العالم اللغوى الذى يتبنى هذه المعالجة ، فعله هو « تثبيت خواص عامة معينة للذكاء البشرى ، وما اللغويات ، ببساطـــة ، الا مجال فرعى من مجالات علم النفس التى تعالج سمات العقل هذه » ·

غير اننا لا نولد ونحن نتحدث اللغة ونفهمها ، فعلينا اكتسابها ، وعلى هذا فان التعامل مع اللغة بهذه الكيفية لا يعنى بما يجرى حين نتحـــدث ونفهم وهو ما سمـــى بالاداء اللغـــوى فحسب ، بل يعنـــى بالكيفية التى نصبح بها قادرين على اداء تلك الامور · ومن الواضح ان السلوك اللغوى عبارة عن مهـــارة معقدة لدرجة انه يبدو من غير المعقـــول تمـــاما أن يكتسبها طفل فى فترة وجيزة ، وقد أوحى ذلك الـــى الناس انه لا بد أن يكون الاستعداد الطبيعى لاكتساب تلك المهارة فطريا ، ولا بد أن تعنى أن البشر وحدهم هم الناطقون باللغات ، وان ثمة خاصيـــة معينـــة بالجنس البشرى تخلق فيهم الميل الى اكتساب اللغات ويذهب بعض علماء اللغات وعلمـــاء النفس فى ذلك شاوا بعيدا اذ يرون أن الطفل يولد ولديه قدرة فطرية وارادة لتعلم اللغة · ويرى آخرون ، ممن يحتاطون فى آرائهم ، أن القدرة والميل الفطرى لاكتساب اللغة يعد من جملة وظائف القدرات الادراكية للبشر التى تمكنهم من التعلم اصلا ·

وتناول اللغة ، كظاهرة تخص الفرد ، انما يعنى اساسيا بتفسير كيفية اكتسابنا للغـــات ، وعلاقتهـــا بالاجهزة الادراكية العامة لـــدى البشر ، وبالآليـــات النفسانية (السيكولوجية) التى تكمـــن وراء فهـــم الكلام وادائه ، اكثر من عنايتها بالغرض من اللغات ، اى بوظيفتها كوسيلة تخـــاطب اذ أن ذلك ينطـــوى بالضرورة على اكثر من فرد واحد ·

اللغـــة كظـــاهـــرة اجتمـــاعيـــة :

يتحدث الناس الى انفسهم بدون صوت ، واحيانا يتحدثون الى انفسهم بصوت مسموع ، وينبغى لكل تقرير عن اللغة أن يضع ذلك موضع الاعتبار ، غالبا

(1) Chomsky N. (1968), Language and Mind, Harcourt, Brace - World

ما نصف حديث الناس الى انفسهم بانه تفكير بصوت مرتفع ، فمن الواضح ان ثمة علاقة وثيقة بين التفكير واللغة ، وتكمن الصعوبة فى التثبت من ذلك كما يتضح من كتابات ادامز (1972) Adams (1) ومع ذلك ففى تعليم اللغات ، يتم التركيز على استخدام اللغة كوسيلة تخاطب بين الناس ، اى على وظيفتها الاجتماعية ، اذ لا داعى لاكتساب نوع من السلوك المعقد ما لم يكن نافعا للفرد وللمجتمع الذى ينتمى اليه ، بالطبع لا تمثل اللغة الصورة الوحيدة للسلوك البشرى فى مجال التخاطب ، اذ قد يكون كل السلوك الصريح وسيلة للتخاطب بمعنى اننا نخرج باستنتاجات عن شخص ما من اى شىء يفعله ، او من الملابس التى يرتديها ، او من طريقة مشيته ، او من طريقة تصفيف شعره · ولكن ذلك لا يزيد عن كونه وظيفة « عارضة » لسلوك غير لغوى ، لا وظيفته الرئيسية او الوحيدة . ومن ناحية اخرى ، لا تمثل اللغة النوع الوحيد من سلوك وظيفته الرئيسية التخاطب ، فنحن نستخدم الاشارة ، ونلوح بيدينا ، ونرفع حواجبنا ، ونتنحنح و « نحول ابصارنا » · كذلك لا يوصف كل سلوك صوتى بانه لغوى : فالصراخ والزعيق ليسا من اللغة فى شىء ، بل ربما لا تزيد عبارات « الوداع » و « الترحيب » و « الاستفسار عن الحال » التى يمكن التنبؤ بها ، عن كونها سلوكا شبه لغوى · فاللغة او السلوك اللفظى عبارة عن نوع خاص من السلوك التخاطبى ومهمة العالم اللغوى هى تمييز اللغة عن غيرها من انواع التخاطب الصوتى وغير الصوتى ·

فالمتحدث انما يتصرف بالكيفية التى يتصرف بها لان تلك هى حال جمهور المستمعين ، ولا يمكننا ان نأمل فى تفسير ما يحدث فى محادثة دون ان نضع فى اعتبارنا الصفات المميزة لكلا المستمع والمتحدث وسلوكهما ، ومع ذلك فكلاهما « يؤدى » بطريقة لغوية · واللغة فى هذه الوجهة الثانية عبارة عن حادث اجتماعى ، لا يمكن وصفه تماما الا اذا عرفنا كل شىء عن الناس الذين يستخدمونها ، وعن شخصياتهم ، ومعتقداتهم ، ومواقفهم ، ومعرفتهم بالعالم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وحالتهم الاجتماعية ، وماهية النشاط الذى يشتغلون به ، وعن سبب حديثهم ، وما سبق ذلك الحديث من الناحيتين اللغوية وغير اللغوية ، وما يلى ذلك من احداث ، وعن المكان الذى يوجدون فيه ، ومجموعة من الحقائق الاخرى عنهم وعن الموقف ·

اذا كان الناس يودون الاشتراك فى لعبة ما فعليهم الاتفاق على قواعدها ، فاذا كان ينبغى ان يحدث تخاطب وجب ان يشترك اللاعبون فى نفس التقاليد ، فصيحاتى وايماءاتى الخاصة بى لا يمكن للملاحظ تفسيرها ، ، شأنها فى ذلك شأن التعبيرات بلغة اجنبية لا يمكن تفسيرها ، ونحن نستطيع التخاطب مع الناس لانهم يشاركوننا مجموعة من أساليب السلوك « المتفق عليها » ، واللغة بهذا المعنى عبارة عن شىء فى حيازة مجموعة اجتماعية ، مجموعة من القواعد التى لا غنى عنها تسمح لاعضائها بالاتصال الذهنى ، وبالتفاعل ، والتعاون بعضهم مع بعض : انها عرف اجتماعى · والحيوانات ، ايضا ، تشترك فى مجموعة من اشارات التخاطب التقليدية وبالطبع يطور البشر والحيوانات ممن يعيشون معا ، مجموعة مشتركة من الاشارات كوسيلة للتخاطب فيما بينهم ، فيمكن لكلبى ان يخبرنى بالوقت الذى يريد الخروج فيه للتنزه ، واستطيع ان اطلب اليه الحضور عندى دون اللجوء الى اية لغة بشرية · ومع ذلك اصبح من الامور المسلم بها دائما انه ثمة اختلاف اساسى فى نوع التعقيد ، لا فى درجته فحسب ، بين لغة الانسان ومجموعة تخاطب الحيوان · واخيرا وضع هذا الافتراض الطويل الاجل موضع البحث ، وقد يكتشف ، نتيجة للدراسات المتواصلة التى يجريها علماء الاعراق البشرية (الاثنولوجى) ان ذلك الاختلاف ليس بالشدة التى كانت تفترض فيه (جاردنر وجاردنر (2) Gardener and Gardener (1969)

دراسة اللغة لغويا :

قد يبدو من العجيب تصوير الدراسة الثالثة للغة كدراسة « لغوية » ، فان ذلك يوحى بان المعالجتين السابقتين لم تكونا معنيتين باللغة ، او ان المصطلح « لغوى » يستخدم بطريقة خاصة الى حد ما· وفى واقع الامر ، وباختصار ، هذه هى طبيعة الحال ،

(1) Adams, P. (1972) Language in Thinking, Pen juin
(2) Gardener, R.A and Gardener, B.T. (1969) « Teaching sign language to a chimpanzee », science, n. 165 pp. 644-72

وهو مستخدم هنا لعزو تناول اللغة ، ذلك التناول الذى تبنته الدراسة المعروفة باسم « اللغويات » ، ولكن ثمة احتمالا هنا لحدوث اللبس عندما اتخذ البروفيسور الن Allen (1) «الدراسة اللغوية للغات» عنوانا لمحاضرته الافتتاحية عام 1966 ، فقد استخدم نفس معنى المصطلح « لغوى » بالشكل الذى اعنيه ، وكذلك نجد فى كتاب جلمسليف Hjelmslev (2) « اللغة » (1963) تعبير « اللغويات اللغوية » ، موحيا بأن اللغويات قد تتضمن لا المعالجة الخاصة التى انا بصدد تلخيصها فحسب بل كذلك المعالجتين اللتين سبق لى التحدث عنهما . وفى هذا المقام كان جلمسليف يتنبأ بالاتجاه الذى تتحرك اليه اللغويات بشكل متزايد ، اى كدراسة شاملة للغة ، وقد سبقت الاشارة الى تلك الدراسة على انها لغويات واسعة النطاق . وفى الواقع ساستخدم مصطلحى «لغويات» و « عالم لغوى » بمعناهما العام والشامل ما لم يكن من الضرورى — فى سياق معين — تحديد المعالجة الجارى دراستها كما هو الحال فى هذا القسم .

واحيانا كان يطلق على الدراسة اللغوية للغة اسم دراسة اللغة من قبيل تكريمها (دى سوسر (De Saussure, (1961) (3) فاذا حسمنا المعنى المتضمن من امكان دراسة اللغة لغرض « نافع » مثل تعليم اللغات ، اذا فهذا التعريف يميز تناول اللغة بهذه الكيفية عن التناولات التى تم تلخيصها ، بترسيخ اللغويات كدراسة مستقلة ، فى حين انه يمكن اعتبار ان التناولات الاخرى تدخل ، على التوالى ، فى نطاق علم النفس وعلم الاجتماع . ويجب أن يكون ثمة نوع من الانسجام بين الاطار الوصفى لدراسة اللغة واساليب تلك الدراسة بالنسبة للفرد وبين دراسة السمات الاخرى للسلوك البشرى والقدرات الادراكية . وبالمثل ، يجب أن تكون دراسة اللغة كظاهرة اجتماعية فى انسجام مع نظريات البنية الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعى ، والثقافة الانسانية . الا أن الدراسة اللغوية للغة تقيم جهازها النظرى الذاتى ، ولها اسلوبها الخاص فى العمل ، وسبلها فى النظر الى بياناتها وانتقائها . هذا ، والتناول اللغوى من اكثر التناولات « موضوعية » ، فهو يهتم باللغة كجهاز ، ويهدف الى توضيح بنية اللغة ، ويقوم بتصنيف الموجودات اللغوية ، ويقيم العلاقات بينها ، وهو فى معناه العام معنى تماما بالعلاقة بين المعانى والاصوات ، ولتفسير هذه العلاقة كان من التقليدى أن تضع المعالجة « مستويات للوصف » وتعلل انواع الموجودات المختلفة التى تعالجها ، وانواع العلاقات المختلفة التى تجدها بين تلك الموجودات ، وتحمل هذه المستويات مسميات مألوفة مثل بناء الجملة وعلم الصرف ، وعلم الاصوات الكلامية ، وعلم تمثيل او تصوير الاصوات ، وقواعد اللغة ، وعلم دلالات الالفاظ وتطورها ، او اذا ما استخدمنا المصطلحات الاكثر شيوعا : النحو والمفردات والنطق .

ومن المحتمل أن تكون الدراسة اللغوية للغة اكثر المعالجات شيوعا حيث ان تاريخها طويل ، سواء فى داخل اوروبا او خارجها ، ولهذا السبب فهى قد تكون اكثر التناولات تقدما وتعقيدا من الناحية النظرية. ولا تتمثل بياناتها فى الافراد وسلوكهم بل فى النصوص والتعبيرات المسجلة ، وهى لا تحفل باوجه التمايز بين المستمعين والمتحدثين ، وبكيفية اكتساب الناس للغة ، او بالدور الذى تؤديه اللغة فى المجتمع .

الا ان النجاح والصقل المطلقين للدراسة اللغوية للغة يكلفا غاليا ، وكما سبق لى القول أن النظر الى اللغة هذه النظرة يعد من اكثر الاساليب « موضوعية » ، ومع ذلك فاللغة ليست شيئا ذا وجود حقيقى ، والموضوعية هنا تعنى التجريد ، وقد مالت الدراسة اللغوية للغة الى فقد علاقتها بالانسان والمجتمع نتيجة لتجريدها على هذا النحو ، وكلما زادت النظريات وعمليات وصف بنية اللغة تقدما ، قل المبرر لتفضيل احد اساليب وصفها على ما عداه من اساليب ، وقد وصلنا الى نقطة ينبغى عندها أن تكون دوافع تبرير الوصف او النظرية الافضل اجتماعية أو نفسانية (سيكولوجية) اى من حيث انسجامها مع أحد التناولين الآخرين .

المعانى الضمنية لتعليم اللغات :

الغرض من تدريس اللغات ، بالاضافة الى انه يجعل التلاميذ يتغلبون على عقبة تعليمية كاداء ،

(1) Allen, W.S. (1966), « The linguistic study of languages », in P.D. Strevens (ed.), Five Inaugural Lectures, OUP.
(2) Hjelmslev, L. (1963), Language : An Introduction, F.J. Whitfield (trans.)
(3) De Saussure , F. (1961), Course in General Linguistics, W. Baskin (trans.) Peter Owen.

هو تمكين الطالب المبتدىء من التصرف على نحو يجعل فى استطاعته المشاركة ، بدرجة ما ولاغراض معينة ، كفرد فى مجتمع غير مجتمعه ، وقد تختلف درجة رغبة اى طالب معين فى المشاركة ، فقد ينشد قراءة المؤلفات الفنية فحسب ، أو قد يرغب فى الاشتغال بالوعظ فى بلد اجنبى . وتتطلب درجات المشاركة المختلفة هذه مستويات مختلفة من المهارة فى الاداء اللغوى ، وهى كذلك تنطوى على تقسيم السلوك اللغوى الى انواع مختلفة من المهارات ،اما من الناحية التقليدية فلهذه الانماط المختلفة مسميات مختلفة : الكتابة ، والكلام ، والاملاء ، والقراءة بصوت مرتفع .. وهلم جرا . ومثلما تختلف الانواع المختلفة من الاداء اللغوى ، تختلف الآليات الكامنة وراءه ، وقد تكون موضع بحث (انظر الفصل السادس) ، فمن الواضح ان تعليم اللغات كان وما يزال يعد تنمية لمجموعة من مهارات الاداء فى الطالب ، ودائما يعبر عن المناهج والجدوال الزمنية من حيث المهارات التى يجرى اكسابها « اليوم سيكون لدينا درس فى المطالعة ، وغدا درس فى المحادثة » . واذا تحدثنا فى اية مناقشة حول تعليم اللغات عن تنمية المهارات من قبيل التحدث أو فهم الحديث ، فاننا بذلك نتبنى رايا نفسانيا (سيكولوجيا) عن اللغة ، وتكون نظرتنا لها على انها من أمور السلوك الفردى ، وسواء اعتبرنا هذا السلوك مجموعة من العادات أو الاستجابات الممكنة ، او مجموعة من المعارف أو مجموعة من القواعد ، فان ذلك يتوقف على الاهمية النفسانية (السيكولوجية) المعينة التى نوليها السلوك اللغوىللفرد وكيفية اكتساب ذلك السلوك . فمن شأن ذلك أن يحدد ، مثلا ، موقفنا من وظيفة التدريبات والفائدة منها ، واعطاء التفسيرات النحوية ، وقيمة التكرار والحفظ عن ظهر قلب ، وفائدة الاملاء ، واهمية الاستماع فحسب ، وايا كان القرار الذى نتخذه فى مجال الاساليب فانه يعنى تبنى راى فى اللغة كظاهرة لعلم النفس الفردى . وما ميز ما يسمى بالتعليم « التقليدى » للغات لم يكن كافيا من حيث افتقاره الى وعى بالبعد النفسى للغة ، بل لانه حد من نطاق السلوك او المهارة المتوخاة ، ولكن ذلك ليس مبررا لتوجيه النقد للتعليم التقليدى للغات، فالمهارات التى حاول ذلك التعليم تنميتها كانت ، الى حد ما ، هى المهارات التى يفترض أن المجتمع اعتبرها مناسبة فى ذلك الوقت ، وقد تحددت بعض اساليب التعليم التقليدى للغات ، وفقا لهذا ، وفى الوقت الحاضر نجد أن ما يمكن قوله ، ولنا مبرر فى ذلك ، حول التعليم التقليدى للغات هو ان اساليبه لم تعد مناسبة لمجموعة جديدة من المتطلبات والتوقعات .

غير اننا حين نتحدث عن السلوك المقبول وغير المقبول او عن اللغة المناسبة او غير المناسبة ، فاننا بذلك نتخذ رايا فى اللغة كعرف اجتماعى ، مجموعة من اساليب السلوك يضع المجتمع شروطها او تحددها السمات الثقافية فى ذلك المجتمع ، فغير الصحيح او غير المناسب هو ، ببساطة ، ما لا يتوافق مع المعايير المشتركة لمجموعة معينة ، اذ اننا بتدريسنا اللغات ، انما نعد الطالب للمشاركة فى مجموعة اجتماعية اخرى، مجتمع لغوى آخر مغاير لمجتمعه ، وليؤدى دورا فى ذلك المجتمع ، واللغة غير المقبولة او غير المناسبة تحول بين الطالب وبين التفاعل او التخاطب بطريقة مرضية مع الآخرين من اعضاء ذلك المجتمع . انه قد يفشل فى تحقيق غاياته وقد يفشل فى التخاطب او قد يساء فهمه ، وقد يؤذى مشاعر الآخرين او قد يجعل من نفسه مثارا للسخرية .

هذا ، ولا تتوافر نفس الاهداف الاجتماعية بالنسبة لجميع الطلبة فيما يتعلق بتعلم اللغات ، اذ ان نطاق الادوار التى يودون تحقيقها سيكون مختلفا ، فقليل منهم يودون لو اصبحوا شعراء فى المجتمع اللغوى الجديد ، والبعض الآخر قد يودون أن يصبحوا زوجات أو أزواجا ، ويقنع معظمهم بأن يصبحوا « اجانب »، وعلى هذا فعند تخطيط عمليات تعليم اللغات ، يجب علينا معرفة الاهداف الاجتماعية المتوخاة ، والاهداف الشخصية التى يود الطالب تحقيقها . وبمعنى آخر علينا أن نقرر اى « نوع » من اللغة نعلمه اياه ، فمفهوم « اللغة » او « اللهجة » مفهوم اجتماعى وليس مفهوما « لغويا » ، فنحن نعلم لغة معينة وليس اية لغة كانت .

وربما كان اكثر الانتقادات التى توجه الى التعليم التقليدى للغات اقناعا ، باصراره على الصواب، وقواعد النحو ، واهدافه المحدودة ، هو افتقاره لهذا البعد الاجتماعى ، فقد افترض أن اللغة عبارة عن مفهوم لغوى ، ويبدو انه — التعليم التقليدى للغات — لم يعبأ كثيرا بفكرة المواءمة ، وبالاسلوب القائل

بأن السلوك اللغوى ايجابى بالنسبة لمواقف اجتماعية مختلفة ، ومن المزايا الكبرى لتعليم اللغات فى العصر الحديث انه يتناول اللغة تناولا اكثر اجتماعية ، وبانه يعنى بمشاكل وظيفتها التخاطبية فى المواقف الاجتماعية المختلفة ، ويتضح لنا ذلك فى الاصرار على تقديم « عرض » اللغة فى مواقف ، واستخدام المعينات السمعية والابصارية ، وفى التأكيد على الامثلة اللغوية « الطبيعية » فلم نعد نلحظ عبارة « قلم عمتى » او « صعق البرق راكب الحصان » .

وارتباط الدراسة اللغوية باللغة من الوضوح بحيث لا يحتاج الى مزيد من مناقشة عند هذا الحد ، فتقسيم ما يجرى تعليمه الى نطق ، ومفردات ، ونحو ، ناشىء عن مقاييس وصف اللغة ، الا اننا ما زلنا نصادف لبسا بين هذا التناول والتناول النفسانى عند ما نستمع الى المناقشات التى لا تنتهى حول تدريس النحو ، وتنشأ البلبلة من أن المصطلح « نحو » شأنه شأن المصطلح « لغة » غامض مبهم كما نوه بذلك كويرك Quirk (1) وجرينبوم Greenbaum وليش Leech وسفارتفيك Svartvik (1972) فهو يستخدم بكلا معنييه النفسانى واللغوى ، ويحاول المعلمون ، احيانا ، ازالة هذا الغموض بقولهم ان ما ينبغى علينا عمله هو أن نعلم الناس اللغة ، لا أن نعلم الناس « عن » اللغة ، ومعنى قولهم اننا نحاول اخراج متحدثين باللغة ، لا علماء لغة ، اى اناسا يستطيعون « التحدث باللغة » لا « التحدث عن اللغة » وبالطبع ، يمكن لعلماء اللغة دائما — فى آخر المطاف — التحدث عن لغة لا يتكلمونها . وتتمثل احدى الانتقادات التى ثارت ضد الاساليب التقليدية فى أن علماء اللغة حققوا نجاحا أفضل فى التحدث عن اللغة بدل الذى حققوه فى « التحدث بها » ، ومن ثم فتعليم قواعد النحو قد يفهم من الناحية الثقافية على انه يمكن الطالب من اخراج منطوقات يسميها علماء اللغة « نحوية » ، ومن الناحية اللغوية كتعريف للطالب بقواعد نحو اللغة وسواء كان تعريف الطالب بقواعد نحو اللغة أسلوبا مفيدا لتنفيذ تعليم اللغة لمثار مناقشة من حيث نفسانية تعليم اللغات، والاجابة على التساؤل هل ينبغى علينا تعليم قواعد النحو ؟ هى « نعم » من الناحية النفسية ، و « ربما » من الناحية اللغوية ، هذا ، ولا يبدو أن الغموض يكتنف تعليم النطق ، اذ بالرغم من أن كلا من العالم اللغوى ومعلم اللغة يمكنه قول الكثير حول نطق اللغة ، فان مناقشة من هذا القبيل لم تثر حول « تعليم النطق » ، فهو يدرك بصفة عامة بمعناه النفسانى فحسب ، من حيث جعله الطالب يتصرف بأسلوب معين . كذلك فان الغموض لا يعترى « تعليم المفردات » والسبب فى ذلك جد شائق اذ على العكس من « التحدث عن النحو او النطق » ، فالحديث عن المفردات شىء نستخدم قدرا كبيرا منه فى محادثاتنا اليومية ، فنحن عندما نصدر تعريفا من اى نوع ، فاننا «نتحدث عن» المفردات وهى تقريبا النوع الوحيد من « الحديث عن » المفردات الذى يمكن للمعلم العادى اداؤه ، ويمكن للعالم اللغوى ان يفعل القليل ولكن بطريقة ليست افضل ، « فالحديث حول المفردات » اسلوب مقبول « لتعليم المفردات » ، كما انه لم يكن مثارا للنقد مثلما كان الامر بالنسبة لتعليم النحو « بمعناه اللغوى » . وبالطبع ، ثمة سبل اضافية لتعليم المفردات مثلا ، بالاساليب الظاهرية التى لها مبررها الاكبر فى علم النفس عنه فى اللغويات .

وتتمثل الصلة الوثيقة بين الدراسة اللغوية وبين اللغة فى تعليم اللغات فى انها توفر انواعا مفصلة وشاملة من اللغة ، وما على المرء سوى ان يتخيل وضع الامور حين ينبغى عليه صياغة منهج لعملية تعليم اللغة بمعناها النفسانى اى من حيث المهارات وانماط السلوك اللفظى الواجب تلقينها ، للتحقق من أن تلك هى أوضاع الامور ، وغالبا ما يصادف المرء خططا من هذا القبيل ، بالرغم من عدم اهليتها للمسمى « منهجا » ، فهى بطبيعتها تدخل فى نطاق الاهداف العامة بمعنى « أنه يجب أن يكون فى مقدور الطالب — عند نهاية المقرر — الكتابة بدون اخطاء نحوية كثيرة ، والتحدث بطلاقة مع أحد ابناء اللغة الاصليين كما يمكنه القراءة بسهولة ويسر فى مؤلف غير فنى » ، وقد يبدو وضع منهج بالمعنى الاجتماعى امرا اكثر سهولة : « يجب أن يكون فى مقدور الطالب شق طريقه كسائح فى البلد الاجنبى ، وشراء التذاكر ، وحجز الحجرات فى الفنادق ، والسؤال عن الطريق .. الخ

(1) Quirk, R. Greenbaum, S., Leech, G., and Svartvik, J. (1972) A Grammar of Contemporary English, Longman.

بلغة البلد الاجنبى » ، وتكمن الصعوبة فى كلتا الحالتين فى أنه مهما بدت قائمة الانجازات طويلة ، فغالبا ما تكون هذه الانجازات غير واضحة وغير محددة وغير نظامية .

والحقيقة انه اذا اردنا رسم خطة تفصيلية حقا لعملية تعليم اللغة ، وجب التعبير عن ذلك بمصطلحات « لغوية » — توائم البنيات النحوية والمفردات ، وتوائم الاصوات ، ومقومات النطق التى يجب « اتقانها » . هذا ، والتناول اللغوى مسؤول عن تحديد كيفية « تصوير » ما ينبغى علينا تدريسه ، وهذا لا يماثل قولنا من انه مسؤول عن « تحديد » ما ينبغى تدريسه ، وهو لا يسهم بطائل يذكر فى تحديد كيفية تدريسنا فى المجالات اللغوية .

نحو التعريب في مجال العلوم والتكنولوجيا

الدكتور دفع الله الترابي
الرياض

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد.

فلقد حظى التعريب فى مجال العلوم والتكنولوجيا باهتمامات كثيرة منذ أول عهد النهضة العربية الحديثة. وظل أمره يبحث فى المؤتمرات واللقاءات العلمية على مستويات مختلفة . ولقد أصبح من المسلم به كنتيجة لاجماع الآراء أن التعريب ضرورة لبناء الامة العربية ، ومن المرتكزات الاساسية لنهضتها .

ومن هذا المنطلق لا حاجة بنا لاقامة حوار حول حتمية التعريب لمستقبل الامة العربية وحسبنا من ذلك هذا الاجماع ، لذا نحونا بهذه المقالة الى ابراز بعض مستلزمات التعريب من مؤسسات ووسائل ، عسى أن يحقق الله الانفتاح المرجو على العلوم والتقنيات وان يمكن للتعريب فى أقل زمان وأكمل صورة .

ونحيى فى مطلع هذه المقالة المجهودات الكثيرة التى بذلت من بعض العاملين فى المجال العلمى والتقنى وذلك باستصدار الكتب المعربة والمترجمة ، وكذلك نحيى أساتذة الجامعات الذين اثبتوا عن طريق الممارسة انه بالامكان تقديم المواد العلمية باللغة العربية بالرغم من أن هذه المحاولات لم يتح لها أن تعمم فى جميع المعاهد أو لكل المواد الدراسية وذلك من ندرة الكتب العلمية العربية وقلة التآليف العربية فى مجال التكنولوجيا .

ولقد كان من ضمن العوامل التى أدت الى كساد سوق الكتب العلمية العربية قلة الطلب عليها من الجامعات والمعاهد ، وانصراف العاملين فى المجال العلمى عنها ، حيث تدار جل الاعمال الهندسية والصناعية والادارات الفنية المختلفة باللغات الاجنبية .

أما بالنسبة للمجلات العلمية العربية فان اثرها

قليل ومحدود لضيق وسائل النشر وانعدام المناخ العلمى وكأن ذوى الاختصاص لم يهتموا بأمرها الاهتمام المطلوب بل انصرفوا عنها انصرافا · لذلك لجأ كثير من العلماء العرب لنشر بحوثهم فى الخارج حيث وسائل النشر العلمى متوفرة وحيث يتنافس المتنافسون لابراز نتاج افكارهم وثمرة جهودهم مما جعلنا نسعى بأفضل انتاجنا العلمى الى خارج بلادنا ، ولا يخفى ان المجلات العلمية الاجنبية لا تنشر من الموضوعات الا ما يتصل باهتمامات أصحابها ، ومن ثم فان جهود هؤلاء العلماء العرب ليست مرتبطة فى المكان الاول بحاجة الصناعة والتعمير المحلية ، الا بذلك القدر الذى تحتمه طبيعة البحث العلمى الشمولية ·

واذا كان لا بد من تحول عن هذا الاتجاه فان التعريب حرى بأن يربط الانتاج العلمى العربى بمشاكل البلاد القائمة · وجعل موارد الامة الطبيعية والصناعية هى حقل البحث الاساسى لدى العلماء ، كما أن ذلك يجنبهم بعض الموضوعات فقط من أجل احتمال نشر نتائجها بالخارج ، على اننا لا ننكر على احد من الباحثين أن يكون له سهم على النطاق العالمى متى سنحت له فرصة لذلك ، كما انا لا ندعو الى تقييد الباحثين أو الحجر على الروائد الفكرية ، بيد أن التعريب والنشر باللغة العربية ضمان لجلب انظار العلماء للاوليات التى ينبغى أن يلتفت اليها ·

هذا ولتحقيق انتاج علمى سليم بالعربية ، لا بد ان تتوفر له جميع المقومات اللازمة فى مجال البحث والنشر والتاليف · ويمكن تلخيص حاجة التعريب من المؤسسات المتخصصة فى الآتى : علما بأن الآراء قد تتباين فى كيفية اسناد المهام المختلفة بين المؤسسات ، أو دمج بعضها فى بعض ·

1 ــ المجمع العلمى العربى :

يقوم هذا المجمع مقام المجامع العلمية المماثلة فى الخارج ويكون رقيبا على تطور العلوم التقنية · وتتفرع عنه أمانات للفروع التكنولوجية المختلفة والتى يناط بها نشر المجلات العلمية المتخصصة وتحضير المؤتمرات والقيام بالدراسات والاحصائيات المتعلقة بالكفاية العلمية بالنسبة للبلاد العربية ·

كما يكون المجمع مسؤولا عن التعريب وخطوات سيره ونشر المعاجم العلمية ، ويكون من صلاحيته توجيه البحث العلمى ونشر الموضوعات التى تتصل بحاجة الامة واولوياتها ·

2 ــ دور النشر العلمية :

تتكفل هذه بمسؤولية نشر الكتب والمجلات العلمية وجميع ما يصلها من المجامع ودواوين الترجمة، على الا تدار على أساس تجارى بحت حيث هى ــ أى دور النشر العلمى ــ موقوفة لتلبية متطلبات الكتب الدراسية ومجلات البحوث والنشرات العلمية ·

3 ــ ديوان الترجمة :

يكون مسؤولا عن تتبع النتاج العلمى فى التقنيات فى خارج البلاد العربية وتقديم دوريات عنها ، ثم ترجمة جميع ما يطلب منه فى ذلك لاغراض البحث او الصناعة والتعمير ·

4 ــ مركز التوثيق :

يقوم بجمع وحفظ المجلات والنشرات والكتب العلمية ومد الباحثين والعاملين بما يحتاجونه حول اى من الموضوعات التى تدخل فى اختصاصه ·

وحتى تعمل هذه المؤسسات المذكورة بكفاية عالية ، لا بد أن يوظف لها اصحاب الاختصاص كل فى مجاله ، كما يجب الا يضن عليها بالمال والصلاحيات التى تحقق اهدافها ·

وقد يتراءى اول الامر ان نفقات التأسيس كبيرة ولا تتناسب مع مردودها السريع ، ولكنها ضريبة ارساء المرتكزات العلمية التى لا غنى عنها لانماء الامة العربية فى ظل قيمها ودينها وتراثها الاسلامى ــ بل ان هذه النفقات سوف تنخفض بعد تخطى مرحلة الانشاء كما أن دور النشر قد تحقق أرباحا من المطبوعات والمنشورات الفنية ·

تعريب الكتب العلمية : (التحليلات الرياضية) :

درج كثير من المؤلفين فى مجال تعريب العلوم على كتابة المعادلات والتحليلات الرياضية باللغة الاجنبية ؛ وقد لا يخفى ان هذه الطريقة فضلا عما تحدثه من